سادة القافلة
6

هاجر تنتظر

مركز نون
للتأليف والترجمة

شبكة
المعارف
الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اسم الكتاب:	هاجر تنتظر
تأليف:	سعيد عاكف، أصغر فاكور.
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة:	2014م - 1435هـ

سادة القافلة (6)

هاجر تنتظر

مركز نون للتأليف والترجمة

فهرس

تعريف بالشهيد عباس كريمي 7

المقدمة 9

الشهيد عبّاس كريمي 11

الفصل الأول: هاجر تنتظر 17

الحجاب والمدير 19

قصّة الخطاب 22

الحاج عبّاس جريحًا 24

عبّاس في الحرس 28

الموافقة والمقابلة 30

مراسم الخطبة والعقد 32

المنزل الجديد 40

البكاء الأخير 43

الاحتياط في بيت المال 46

فقد الأصحاب 48

الولادة، يا زهراء 52

قلب رؤوف 57

إلى «دزفول» والصواريخ 63
الطبيب الحقيقيّ وصلاة جعفر الطيّار 66
الفصل الثاني: رجل بالكوفية البيضاء 83
حادثة في المدرسة 85
مؤاساةً ليحيى 89
جنديّ الثورة 93
فتحٌ من دون قتال 100
كمين في كمين 108
رجل بالكوفيّة البيضاء 115
الطيّار الذي أراد الوقوع في الأسر 124
التعبويّ الجديد 130
عروج في شرق دجلة 137
ملحق: قصص الفاكهة المعلّبة ومرويّات حول الشهيد 145
قائد الفرقة 147
عطر ورقّة الحضور 148
من جزيرة مجنون إلى بهشت زهراء 149
الإبداع سلاح المؤمن 150
كلمة أخيرة 151

بطاقة تعريف بالشهيد عباس كريمي

الاسم: عبّاس كريمى

تاريخ الولادة : 1958م ـ محافظة كاشان

تاريخ الشهادة: آذار 1985م

المكان : منطقة عمليات بدر – شرق دجلة

آخر مسؤولية : قائد فيلق «27 **محمد رسول الله** ﷺ»

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيّدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد.

قالت هاجر[1]: كل شيء هنا فيه معنى الانتظار...

البيت مملوء برائحة «**عباس**»، والزوايا تشتهي أن تراه.

حينما يكون «**عباس**» هنا، تحلُّ رائحة ترابٍ رطبٍ، رائحةٌ لا تشبه إلا نفسها.

قالت هاجر: وسأنتظر بعد يومين، وشهرين، وسنتين، ودهرين آخرين.

سيأتي «**عباس**»، ويلفُّ وجهي المتعب من الانتظار.

سيلفّه بكوفية بيضاء، كوفيته البيضاء مثل قلبه، وكفّيه، ورائحته.

قالت هاجر: سأنتظره، ولن يأتي، إلا أنَّ طعم الانتظار فيه نكهة لا يعرفها إلا أهل العشق.

---

(1) زوجة الشهيد عباس كريمي.

وسيقول أهل العشق: هاجر تنتظر عودة رجلٍ بالكوفية البيضاء.

هذا الكتاب هو الكتاب السادس من سلسلة سادة القافلة التي تنقلنا عبر معابر العشق إلى خنادق المجاهدين وحبيبات التراب التي لامست أقدامهم، إلى حيث احتضنت الملائكة أرواح الشهداء، إلى قلاع العزة والبطولة والفداء... أعني أرض الجهاد والشهادة.

ونحن إذ نقدّمه لإخواننـا الأعزاء نسأل الله تعالى أن يوفّق الجميع للاستفادة من دروس وعبر هذه المدرسة المعطاءة.

والحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

الشهيد عبّاس كريمي

جثـا الرجل على ركبتيه قرب الضريـح، والدموعُ تنهمر على خدّيه. دعـا أوّلًا لإخوانه عند صاحـب الضريح ومن ثمّ طلـب حاجته وحاجة زوجته:

«يا أبا الفضـل العبّاس! لا تدَع هذا الطفل يموت كما مات إخوته من قبل».

خنقتـه العَبرة من جديد. وهـو على تلك الحال، ألقـى برأسه على الضريح وأجهش بالبكاء:

«سـيّدي! قصـدتك من بلاد بعيدة، أتيت لتحقّـق لي طلبتي، فلا ترجعني خائبًا إلى وطني».

بعدها، عقد خيطًا أخضر اللّون- أعطته زوجته إيّاه- على الضريح ونوى:

«لله نـذرٌ علـيّ، يـا أبـا الفضـل العبّاس! إن كان مولـودي ذكـرًا، فسأسمّيه باسمك المبارك: عبّاس».

بعـد مضـيّ عـدة أشهر علـى زيارته كربـلاء؛ ها هو بيتـه يزدحم بالأقارب، والنسوة تذهبْن وتجئْن. أمّا هو، فالقلق بادٍ عليه. صعد أحد

أقربائــه إلى سطح البيت، ورفع صوته بالأذان. وما إن رفع الرجل يديه بالدعاء، حتى تناهى إلى سمعه صوت:

«**مبارك إن شاء الله، المولود بصحّة جيّدة**».

هبّ الرجل من مكانه مسرورًا، وأعطى صاحبة الصوت «**البشـارة**». وقد نسي أن يسأل أكان المولود ذكرًا أم أنثى؟

عندمــا خَلَت الغرفة دخـل ليرى مولوده. ما إن وقعـت عينا زوجته عليه، حتّى قالت:

«**عبّاس، سنسمّيه عبّاس**».

خنقته العبرة؛ فهو لا يذكر أنّهما تناقشا في اسم المولود. ثمّ قال:

«**عبّاس اسم جيّد، فهو من حقّق لنا أمنيتنا**».

ولـد عبّاس كريمي في قرية «**قهرود**» عـام 1957. تبعد هذه القرية مسافة ستّين كيلومترًا عن مدينة «**كاشان**».

ليس هراءً القول أنّ سيرة عظماء العالـم متشابهة بشكلٍ أو بآخر؛ فمنـذ سنين طفولتـه، كان عبّاس يتميّز عن أترابـه. ولم يكن يمرّ عن الأمـور – صغيرها وكبيرها– مرور الكـرام؛ وكانت كلمة «**لماذا**» تُسمع فـي الكثير مـن كلامه، ولم يُضنه السـؤال يومًا للتوصّـل إلى الإجابة. أنهـى عبّاس المرحلة الابتدائيّة من دراستـه في قهرود. ونال الشهادة المتوسّطـة فـي كاشان. بعدهـا، أمضى مدّة سنتين فـي طهران. وفي هاتين السنتين كان يعدّ نفسه لمواجهة الجهل وظلم الحكومة الملكيّة[1]؛ وهذه المـرّة قصد منطقة كاشان، والتحق بالمعهـد الفنّي فيها. وبعد نيلـه الشهـادة الثانويّة في الحياكـة، التحق بالخدمـة العسكريّة. وقد

(1) للنظام الملكي الاستبدادي بزعامة محمّد رضا بهلوي المقبور.

ترافق ذلك مع أولى أنغام الثورة.

قبل ذلك، كان تاريخه حافلًا بتوزيع المنشورات في قهرود وكاشان، وأمضى حياته ما بين الملاحقة والفرار؛ وفي تلك الأثناء، كان يتعرّف على الوجه الحقيقي للظلم الذي مارسه النظام الملكي. والآن، عبّاس جنديٌّ في الثكنة العسكريّة؛ وقد ساعدته هذه التجارب كثيرًا وصقلت شخصيّته؛ فإدخال المنشورات إلى الثكنة يتطلّب قلبًا شجاعًا.

بعد أن أمر الإمام الخميني قدس سره الجنود بترك ثكناتهم، التحق عبّاس بقوى الثورة. وكان من جملة الأشخاص الذين التحقوا بالقوى العسكريّة للجنة استقبال الإمام الخميني قدس سره.

في ربيع العام 1979م، وإحساسًا منه بالتكليف، التحق عبّاس كريمي بحرس الثورة الإسلاميّة الحديث التأسيس. في العام 1980، كان من أوائل الأشخاص الذين قصدوا كردستان لقتال أعداء الثورة[1].

بعد مدّة، وبسبب شجاعته وقدراته الفذّة في التخطيط الاستخباراتي، عُيّن كمسؤول للاستخبارات في عمليّات الحرس في منطقة «**مريوان**»[2]. يومًا بعد يوم، كان نبوغه الأمنيّ يلمع أكثر فأكثر. فالمعلومات التي كان يأتي بها، كانت دومًا فائقة الدقّة وموثّقة. وكانت تحرّكات أعداء الثورة وخطط عمليّاتهم تُكشف دومًا وتصل إلى القيادة بفضل فكره الثاقب. حتّى قواعدنا التي كان يُحتمل أن تُشنّ الهجمات عليها، كانت آمنة بفضل خطط عبّاس. وبسبب هذه الدقّة، كان الحاجّ

(1) الحركات الانفصاليّة المدعومة من المخابرات الأجنبيّة الغربيّة التي قامت على أساس عرقي أو مناطقي ودعت إلى الانفصال عن إيران لإضعاف الثورة، انسجامًا مع الأهداف والمخطّطات الغربيّة.

(2) مريوان تُلفظ marivan

«**أحمد متوسّليان**»[1] يعتبر عبّاسا ساعِدَه وعينه. وكثيرًا ما كان يردّد: «**المعلومات التي يأتينا بها الأخ كريمي هي معلومات بالغة الدقّة، ولهذا، ينبغي التخطيط والعمل بها مئة في المئة**».

كان لعبّاس دور لافت في تحرير مناطق استراتيجيّة، مثل «**دزلي**»، و«**أورامانات**»، والمناطق الحدوديّة التي كانت تحت سيطرة أعداء الثورة[2]. ويعتقد الكثير من القادة أنّ المعلومات الدقيقة لكريمي، خلال سنوات حرب الدفاع المقدّس، كانت مكمّلة لقيادة الحاج أحمد متوسّليان المقتدرة والحكيمة. لقد قدّم بروحيّته الخاصّة ونبوغه الفائق، خدمات لا تُحصى من أجل أمن الوطن واقتداره؛ وكان لتصرّفاته المفعمة بالشهامة وقعًا طيّبًا، حتى على أعداء الثورة أحيانًا، دفعتهم للتعاون معه.

كان عبّاس يعتقد بأنّ الكثيرين ممّن حملوا السلاح وهدّدوا أمن الجمهوريّة الإسلاميّة، هم أشخاص تموضعوا عن جهلٍ وغفلة في جبهة المعادين للثورة. لهذا، كان يسعى إلى إظهار وجه الثورة الإسلاميّة الحقيقي أمام الجماعات المعادية. في تاريخ الحرب ما بعد الثورة، لم يسبق لأحد أبدًا، أن استطاع من خلال الكلام، إجبار القيادات المعارضة على الاستسلام. لكنّ عبّاس فعل. ففي منطقة كردستان، حينما كانت قوّات حرس الثورة لا تتجاوز ثلاثمئة عنصرًا، أعاد عبّاس تجهيز أكثر من ألف ومئة عنصرٍ كانوا في زمرة المعادين

(1) الحاج أحمد متوسليان؛ أحد الدبلوماسيين الأربعة المفقودين في لبنان عام 1982 حيث كان حينها أحد العاملين في السفارة الإيرانية في بيروت؛ وقبل ذلك، أدّى دورًا رياديًّا في أعمال الثورة ومحاربة أعدائها في مناطق شمال غرب إيران.

(2) مناطق تشمل مجموعة قرى ومدن كرديّة استولت عليها الجماعات الكرديّة الموالية للغرب.

للثورة، ثمّ استسلموا؛ ليقاتلوا في سبيل أهداف الجمهوريّة الإسلاميّة.

مع بداية العدوان البعثيّ على المناطق الحدوديّة، ذهب عبّاس برفقة عدد من القادة أمثال «**الحاج متوسّليان**» و«**تشراغي**»[1] إلى جنوب البلاد. وهناك، عمل كمسؤول معلومات عمليّات «**لواء محمّد رسول الله** ﷺ». بعد فترة، أصيب إصابةً بالغة في رجله في عمليّات «**الفتح المبين**» الغرّاء، ولكن عيل صبره بسبب الرقود الطويل في المستشفى، فالتحق بالمجاهدين متّكئًا على العكّاز.

تزوّج في الواحد والعشرين من شهر تشرين الأوّل للعام 1982م. وأُقيمت مراسم بسيطة جدًّا عند عقد القران. في صباح ذلك اليوم، ذهب وزوجته إلى مقبرة الشهداء في كاشان ليجدّد العهد معهم. وبعد أيام عدة، انتقل مع عروسه إلى المناطق الجنوبيّة للبلاد، لتشاركه هناك حياة الثورة والجهاد.

في عمليّات «**والفجر**» التحضيريّة، عُيّن عبّاس مسؤول الاستخبارات لعمليّات الحرس. وبعدها، أوكلت إليه مهمّة قيادة «لواء سلمان» التابع لفرقة «27 **محمّد رسول الله** ﷺ».

في «**عمليّات خيبر**»، استُشهد حبيب التعبويّين وسندهم الحاج «**محمّد إبراهيم همّت**». كانت تلك الحادثة قاسية وموجعة بالنسبة إلى الحاجّ عبّاس. بعد ذلك، تسلّم قيادة «**فرقة محمّد رسول الله**»، مكان الشهيد همت؛ وبهذا، ملأ الخواء الذي أصاب قلوب التعبويّين جرّاء فقد الشهيد «**همت**». ويشهد جميع الأصدقاء أنّ حياة عبّاس المعطاءة، سواء قبل تسلّمه قيادة الفرقة أم بعدها، لم تتغيّر، بل

(1) cheraghe.

كان يؤدي تكليفه كأيّ تعبوي عادي.

وفـي النهاية، سارع هذا المجاهد في سبيـل الله إلى لقاء معبوده في 1985/3/14م إثر إصابته بشظيّة في الرأس؛ وذلك في عمليّات بدر المظفّرة في جنوب البلاد (شرق دجلة).

الفصل الأول

هاجر تنتظر

قصص وخواطر من حياة

الشهيد القائد عبّاس كريمي روتها زوجته

الحجاب والمدير

قـرّر مدير التربيــة والتعليم في كاشــان زيارة المدرســة، فانشغل المدير والأساتذة بالتحضير لهذه الزيارة، وكانوا يقولون: إنّه لا ينبغي رؤية الحجاب على رأس أيّة فتاة.

لم يختلف الأمر بالنسبة إليّ، وخرجت كالعادة، من المنزل بعباءتي السوداء ودخلت المدرسة.

كان مدير التربية والتعليم قد وصل. لم أخلع حجابي، قالت المعلمة لي: «**اخلعي الحجاب**».

ما زلت أتذكّـر صوتها النكرة من فرط الغضب والعصبية، إلاّ أنّني لم أخلع حجابي. رفعت يدها؛ لتصفعني على أذني، أشحتُ بوجهي إلى الخلف فاصطدم بزاوية النافذة. ما استطاعوا ثنيي في ذلك اليوم ولا في الأيّام التي تلت.

كنت فـي الصفّ السادس، وقـد حان موعد الامتحانـات النهائيّة، وكان عليّ تحصيل بطاقة دخول للامتحان وعليها صورة شخصيّة، وقد طلبوا أن تكون الصورة الشخصيّة دون حجاب.

كانـت معلّمتنا في تلك السنة ابنة أحـد علماء الدين، أخذتُ صورة بالعباءة وحجاب الرأس وأحضرتها للمعلّمة، وسألتها: «**ما رأيك؟ هذه صورتي أخذتها بهذا الشكل**».

قالت: «**واضح أنّهم لن يسمحوا لك بتقديم الامتحان**».

نظـرتُ إليهـا ففهمت قصـدي، وقالـت: «**سـأحاول جهـدي ولكن أستبعد الوصول إلى نتيجة**».

قلت: «**إذا لم يقبلوا فلن أقدّم الامتحان**».

كانت تعلم أنّني جادّة فيما أقول، ولم ترغب أن تذهب جهود أعوامي سدىً؛ لذا أصـرّت كثيرًا على المدير، إلى أن استطاعت أخذ الموافقة لي على تقديم الامتحان بهذه البطاقة.

ومـا إن حصلت علـى نتيجة امتحان الصـفّ السادس حتّى عارض والدي مجدّدًا ذهابي إلى المدرسة؛ فقد كان يقول:

«**إنّ الأوضاع سيّئة، ويريدون حرف أبناء الناس عن الدين**».

ولأنّـه لـم يكن سهـلًا عليّ الانقطـاع عـن المدرسة؛ كنـت أقول بإصرار:

«**سأنتبه لنفسي كما في السنوات الماضية**».

إلّا أنّ والدي- ولأسبابٍ عديدة أقتنعني برأيه، فأذعنت للأمر، ولكن لـم أستطع إبعاد الحـزن عنّي لانقطاعي عن المدرسـة، فبدأت أشغل نفسـي بالذهاب إلى صفّ تعليم الخياطة. واستمرّ الأمر على ذلك إلى

حين وقوع حادثة 17 شهريور[1]، فقد هزّت هذه المجزرة كياني، بحيث دفعتني إلى القيام بنشاطاتٍ ضدّ السلطة.

بقيت أتعطّش إلى الدراسة والتحصيل، فانتسبت إلى مدرسة ليليّة إلى جانب دراستي الحوزويّة. ولم يكن يسرّني شيء أكثر من أن أقوم بنشاطي مع الثورة، وأن أتابع دراستي في آن واحد. وما إن انتصرت الثورة حتّى ازدادت نشاطاتي.

لا أذكر متى جاء أوّل خاطبٍ إلى بيتنا، ولكن ما أعلمه جيّدًا أنّه لم تكن لديّ رغبة بالزواج، وربّما كان أهمّ سبب لذلك، هو أنّني لم أكن أرغب بالتوقّف مرّة أخرى عن متابعة الدراسة.

(1) يوم الجمعة 17/ 06/ 57 هـ ش [أيلول 1978] المعروف بالجمعة الأسود في إيران، عندما هاجم جيش النظام الملكيّ البائد جموع المتظاهرين في المناطق الفقيرة جنوبيّ طهران، وأدّى إلى سقوط آلاف الشهداء والجرحى.

قصّة الخطاب

فـي كاشـان، العـرف السائد أن تذهـب الأم بادئ الأمـر لطلب يد العروس، ثمّ تصحب ابنهـا، وبعد ذلك تذهب وبقيّـة العائلة. لم أكن أسمح بالحديث عن موضوع خطبتي ابتداءً من الخطوة الأولى، وأحيانًا لـم يكن يصل الأمر حتّى إلى المرحلة الأولى، فبمجرّد أن يطرقوا باب منزلنا ويقولوا:

«**جئنا لأمر الخير**».

كنت أجيبهم: «**لقد اشتبهتم**».

فيقولون: «**سمعنا أنّ في هذا البيت فتاة في عمر الزواج**».

وكنت أجيبهم: «**ما سمعتموه غير صحيح**».

فكانوا يتعجّبون ويسألون: «**إذن من أنتِ؟**».

فأقول لهم: «**أنا ابنة جيرانهم**».

أحيانًـا كان بعضهـم يأتي إلى منزلنـا مرارًا، ويصـرّ على والدتي فكانت تقول له:

«**صدِّقني لا كلام لديّ، ولكن ابنتي لم تقبل**».

حتّـى أنّني ما كنت أقبـل أن يروني. أنا البنت الوحيدة في البيت مع أربعـة أخوة؛ وربما لهـذا السبب لم يكن والدي يجبرنـي على قبول أيّ واحـد من المتقدّمين لخطبتي، وحتّى عندمـا يكون مقتنعًا بالخاطب؛ إلّا أنّـه كان يحدّثني ويناقشني ليقنعني، ولكـن في النهاية كان يرضخ للأمر وينقل «**رفضي**» للخاطب.

كان والـداي يحدّثانني دائمًـا ويرغبان في أن أغيّـر رأيي، وأرضخ كيفما كان وبأيّ طريقة، إلّا أنّ جوابي كان واحدًا:

«**ما لم أحصل على شهادة الثانويّة فلا تكلّموني بالأمرِ**».

إلّا أنّهمـا كانـا يقومـان بما يحلو لهمـا، فكانا يسمحـان للخطيب بالمجـيء إلـى بيتنـا؛ وفـي المقابل كنـت أعمل مـا يحلو لـي وأقوم بالرفض.

الحاج عبّاس جريحًا

لـم تكـن العائلة لتجـاري الحـاجَّ عبّاس، هـم أصلًا لم يـروه حتّى يعرفـوه، كان في الجبهة على الدوام، وعندما كان يعود إلى كاشان في إجازة ليوم أو يومين، كان يمضي جُلّ وقته مع الحرس في المدينة.

أصيـب بجرحٍ بليغٍ في قدمه خلال عمليّات «**والفتح المبين**»، وكان هنـاك احتمال لبترهـا. لازم المستشفى عـدة أيّام، بعدهـا نقلوه إلى المنزل، وأُجبر على البقاء في المدينة لفترة.

كانت عائلته تقول:«**في النهاية لن نجد أفضل من هذه الفرصة**».

اتّفقـوا علـى إلهائه عـن التفكير بالجبهـة بأيّ طريقـة، فاقترحت والدته أن تزوّجه.

انتشرت قضية تزويج عبّاس بين أصدقائه أيضًا. وقد تزوج أحدهم في ذلك الوقت، وأثناء عرسه قال لعبّاس: «**زوجتي تعرف صديقةً لها، تتحدّث دائمًا عن أخلاقها وسجاياها، وأظنّ أنّها خُلقت لك أنت**».

أصـرّ على إعطائه عنوان الفتاة، وقال له: «**لن تخسـر شـيئًا. ابعث بوالدتك؛ لترى ماذا يحصل**».

فـي إحدى الليالي، عندما أعادت والدته طرح موضوع الزواج عليه، تذكّـر عبّاس العنوان الذي أخذه من صديقـه. أخرج ورقة العنوان من جيبه وأعطى والدته إيّاها. نظرت إليه بدهشة وقالت له: «**ما هذا؟!**».

أجابها: «**هذا ما تريدين**».

نظرت إلى الورقة وفهمت الموضـوع، فغمرها السرور والغبطة ولم

ترغب أن ينقضي ذلك اليوم. وضعت العباءة على رأسها وخرجت قاصدةً العنوان.

نادت إحدى النساء من الجيران: «**زهرا، زهرا**». كنت في الغرفة، نظرت من النافذة ؛ لأرى ماذا يجري في الخارج، رأيتها تقف مع امرأة لا نعرفها، عرفتُ أنني وقعتُ في أيديهما. فذهبت بسرعة إلى الداخل.

في أوّل الأمر، حاولت أمّي قطع الطريق على والدة عبّاس من البداية، وقالت لها:

«**سيّدتي، ابنتي عنيدة وصعبة المراس، لا تريد الزواج بأيّ وجه من الوجوه**».

ولكنّ والدة عبّاس لم تكن لتقبل بهذه السهولة وتقفل عائدةً، أوعزت إلى إحدى جاراتنا واستعانت بها، حيث أصرّت كثيرًا، وفي نهاية المطاف أدخلتهما أمّي إلى البيت. ما إن دخلتا إلى باحة البيت حتّى نادتني جارتنا، وأحبّت أن تكمل معروفها. ولعلّ والدة عبّاس كانت الوحيدة من اللواتي دخلن بيتنا لخطبتي وحظين برؤيتي. أدخلتهما والدتي إلى غرفة أخرى غير التي كنتُ فيها، ووقفت أسترق السمع. كانت والدة عبّاس تتحدّث عن خصوصيّاتهم وسجايا ابنها، وكانت تتكلّم بطريقة يُفهم منها أنها مرتاحة وفرِحة بي. وقد فهمت السبب فيما بعد، عندما علمتُ أنّي عنيدة، قالت في نفسها:

« **هذه ممكن أن تكون مناسبة لعبّاس في الصدّ والممانعة، حتمًا ستقيّده داخل المدينة بنحوٍ ما، وبالتالي لن يستطيع الذهاب إلى**

الجبهة، أو إنّه سيقلّل من ذهابه بالحدّ الأدنى».

قبل أن تغادرا، قالت والدة عبّاس إنّها ستأتي مرّة ثانية؛ لتراني. أتت والدتي وقالت لي ذلك، أجبتها: «**أبدًا**».

كانت مرتاحة كثيرًا إلى حدّ أنّها تركت عنوان بيتها لدينا، وقالت: «**عبّاس ابني يعمل في الحرس بكاشان ويمكنك السؤال عنه، والتحقّق من ذلك**».

كان عبّاس يفكّر بالحاجّ «**أحمد متوسّليان**» وبالحاجّ «**همت**»، وبالذين كانت على عهدتهم مسؤوليّة عمليات «**فيلق محمد رسول الله 27**» . في ذلك الوقت، كانت أحواله وأيّامه شبيهة بحال طائرٍ مسجون داخل قفص، فإذا تعافت قدمه لن يبقى يومًا واحدًا في كاشان.

كان عبّاس كتومًا جدًا فلا يخبر أحدًا بما يجول في خاطره، حتّى لو كان ذلك الشخص والدته.

عندما رجعت والدته إلى البيت، لم يكن يمنعها شيء من الكلام. انهمكت بالحديث عن أوصاف الفتاة وأحوالها. كان عبّاس ينظر إليها ويستمع في ظاهر الأمر؛ لكنّ قلبه كان في مكان آخر؛ فحتّى هذه اللحظة، لم يكن قد أخذ قصة الخطوبة على محمل الجدّ، فمن نظراته تشعر بلا مبالاته. وبقيت هذه اللامبالاة إلى أن ذكرت والدته في طيّات كلامها اسم البنت. ما إن سمع عبّاس اسم البنت «**زهرا**» حتّى أظهر اهتمامًا بحديث والدته، وسألها بطريقة غير اعتيادية:

« **ماذا قلتِ ما اسمها؟**».

أجابته: «**زهراء**».

شعـر عبّاس، للحظة، أنّ حالـة الانقباض التي اجتاحته نتيجة بعده عـن الجبهة قد انتهـت، وأحسّ أن أبـواب السماء المغلقـة قد فُتحت أمامه.

عبّاس في الحرس

أحبّ والدي أن يدخل من الباب الذي يريحني وأطمئنّ إليه، قال:

« **هو من رجال الحرس القدوة. وكلّ من سألناه لم يكن لديه كلام سوى ما ذكرت**».

سكت قليلًا ثمّ أضاف:

« **في الخلاصة، هو ذلك النموذج الذي تريدينه**».

قلت له: «**أنا أرتاح لمثل هؤلاء الشباب، لكن ليس بقصد الزواج**».

لو كُنتُ أعرف عبّاسا من البداية، لربّما قلتُ نعم منذ اللّحظة الأولى. بعد وقتٍ من شهادته، ذكر رفاقه خواطر عنه، وفهمت أنّها حدثت أوائل الحرب، في كردستان، فكم استنقذ أشخاصًا شديدي المراس من صفوف أعداء الثورة، وأمّا في الأخلاق فقد كان شخصًا مثقلًا بالورع والتقوى.

في المرة الثانية، عندما أتت والدته إلى منزلنا كان عبّاس برفقتها. وقفا أمام الباب، جاءت أمّي إليّ وسألتني: «**ماذا نفعل؟**».

قلت لها: «**لا شيء! قولي لهما أن يرجعا**».

قالت: «**هذا تصرّف سيّئ يا ابنتي. أتريدين أن تُذهبي ماء وجهنا، هكذا عند الباب وأمام الجيران؟**».

أذعنتُ للأمر، ولكن قلت بجدٍّ وإصرار: «**تدخل والدته، أمّا هو فلا**».

اغتنمت والدتي ما اعتبرته فرصة، وأسرعت إلى الباب. كان هناك

بقّـالٌ بالقرب مـن بيتنا. فيما بعد عبّاس قال لي: «**فـي ذلك اليوم كان البقـال جالسًـا، أمام دكّانـه، وعندما رجعت عن البـاب كان ينظر إليّ بحيـث اعترانـي حينها، الكثير من الخجل والحيـاء. وكنت أقول في نفسي: صبرًا، فيما بعد حسابك عندي**».

فـي ذلك الوقـت، كنت فعلًا على تلك الحال، ولـم أعتبر ذلك عيبًا البتّة! حتّى عندما وافقت في الجلسة التالية على مجيء عبّاس ووالده، كنت أقول في نفسي: «**ما دمتُ لن أوافق فلأدعهم يشعرون بالارتياح**».

جاؤوا وكان الوقت ليلًا وجلبوا معهم علبة حلوى. دخلت إلى الغرفة حتّى لا أُغضب والدي وجلست معهم قليلًا ، وكان قصدي هو ما ذكرته.

فـي تلك الدقائق قـام والدي وقدّم للضيوف الحلـوى. عندما وصل إلـى عبّاس امتنع عن تناول شـيء من الضيافة. ألّحّ عليه أكثر من مرّة ، لكن عندما وجد أنّ عبّاسًا لا يستجيب، سأله: «**أتحبّ المجاملة؟**».

أجاب عبّاس بثقة تامّة وبمحبّة: «**لا أبدًا، لا أجامل وهذا بيتي!**».

قلت في نفسي: «**حسنًا، لمّا يدخل البيت بعد، وأصبح البيت بيته**».

في تلك الليلة، كانت نظرة عبّاس إليّ مختلفة عن نظرتي إليه، فقد بدا بوضوحٍ أنّه مرتاح ومطمئنّ، أمّا أنا فلم أكن أصلًا أشعر بشيءٍ من الارتياح؛ ولذلك خرجت من الغرفة بسرعة.

الموافقة والمقابلة

أصبحت مرّة أخرى في مواجهة أبي، قال:

«إذا كان لديك مشكلة ما، أمر ما، حسنًا قولي، تكلّمي وأخبريني حتّى أفهم».

أجبته: **«أنا لا أريد الزواج أصلاً».**

قال لي: **«إنّه شابّ جيّد، وما تريدينه موجود لديه».** وأضاف: **«أظنّ أنّه لم يتسنّ لك رؤية عبّاس بشكل جيّد. ما رأيك لو آخذك إلى مكانٍ آخر وترينه بشكل أوضح؟».**

وقد أكثر والدي من الحديث والنصيحة إلى حدّ جعلني في النهاية أوافق على رؤيته مرّة أخرى. ولكنّي لم أرد اللقاء به وجهًا لوجه. ووافقني أبي على ذلك أيضًا، واقترح أن يكون اللقاء في الدكان، حيث كان لدينا محلّ لبيع الحقائب.

إلى خلف مكان عرض الحقائب، حيث تتدلّى بطريقة تريحني بالوقوف خلفها، حضر عبّاس في الوقت المعلوم. استقبله أبي ورحّب به بحرارة وسأله عن أحواله، ثمّ أجلسه على كرسيّ في الجهة المقابلة لي تمامًا. شاهدته جيدًا من بين الفرجات التي بين الحقائب المتدليّة.

فيما بعد قال لي عبّاس: **«حين جئتِ إلى الدكّان. من الواضح أنّها كانت خطة، وهي من تدبيرك».**

وكان يقول: **« منذ البداية عرفت أين تجلسين وكنت تنظرين إليّ».**

طلبت من والدي أن يحدّثه بشكلٍ صريح حول دراستي، وأن يأخذ منه كلامًا قاطعًا، ويضع عليه شرطًا أن لا يمنعني من متابعة الدراسة.

لقد أخبروه عنّي وعن عنادي ولكنّه لم يهتمّ، وكان يقول:

«**توكّلت على الله. وكأنّه قد أُلهِم إليّ أن أقوم بهذه المصاهرة**».

ولهذا السبب لم يكن ليتكلّف كثيرًا أو ليبذل جهدًا إضافيًا. بعض النّاس توقّعوا أنّه بعد الزواج، سيؤدّي وجودي معه إلى التقليل من ذهابه إلى الجبهة؛ إلّا أنّ عبّاسا كان يقول وبضرسٍ قاطع:

«**ما دامت هناك حرب ولديّ القدرة والاستطاعة، فلن أتوقّف عن الذهاب إلى الجبهة**».

بالمناسبة، أنا أيضًا كنت أتوقّع منه ذلك، وكنت مسرورة؛ لأنّه يفكّر بهذه الطريقة.

في ذلك اليوم، عندما تحدّث والدي معه حول الدراسة، وشرطي بعدم ترك التحصيل العلمي، كنت أترقّب ردّه بحساسيّة. وقد كنت سمعت أنّ الكثير من الرجال، في بداية الأمر، يقبلون أيّ شرط وعندما يتمّ لهم الأمر ينسون كلّ شيء. كنت قد حضّرت نفسي؛ لكي أسمع جوابه أنّه بإمكاني متابعة درسها، ولكنّه قال:

«**لا مشكلة في الدراسة ما دامت لا تضرّ بحياتنا**».

مراسم الخطبة والعقد

لعلّكم قد واجهتم مثل هذا الأمر، فأحيانًا قد يظهر أنّكم لا تقبلون أمرًا ما بسهولة، وبدايته تكون صعبة جدًّا؛ لكنّ النهاية تكون مختلفة تمامًا من خلال سماع كلمة صادقة، أو عند رؤية حدثٍ بسيط...

فصِدق عبّاس، في تلك اللحظات، نقلني من ضفّة إلى ضفّة أخرى. فكلامه أثّر في قلبي كثيرًا. في ذلك اليوم، ولكي يكون قراري محكمًا، استخرت الله فجاءت الآية: «**الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّيّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم**»[1].

مع هذه الآية لم يعد من مجال للرفض. حتّى لا أنسى، هناك نكتة أساسيّة في الآية، وبالطبع هي مرتبطة أكثر بعبّاس وروحيّته، وقد أدركتها – فيما بعد– من عبّاس نفسه؛ فبناءً على فئة من الروايات واستنادًا إلى التفاسير، فإنّ الوجود المقدّس للسيِّدة فاطمة الزهراء عليها السلام هو محور هذه الآية.

ففي مراسم الخطبة[2] ، عندما كان الحديث حول المهر وما شابه، قال عبّاس براحةٍ تامّة، كما في المرّات السابقة:

(1) سورة النور، الآية: 25.

(2) مراسم الخطبة ويقال لها بالفارسية : بلى برون..

« **لا شيء لديَّ غير التوكّل على الله تعالى**».

حتّـى البارحة لم أكن قد حسمت أمري في الزواج؛ أمّا الآن فينبغي أن أبحـث الأمر وأنهيه جديًّا مع أهلي، وعلى الأقلّ ينبغي أن أرضيهما. كان المهر في المحصلة 16000 تومان. في البداية عرض أبي أن يكون لـي حصّـة في بيت، وكان يعنيه كثيـرًا أن أذهب إلى بيتـي. لكنّ عائلة عبّاس قالت:

«**الآن لا نستطيع**».

قال أبي: «**قدّموا شيئًا؛ ليتمكّنا من شـراء بيت فيما بعد إن شـاء الله**».

فـي 12/ تشرين الأول/ 1982 هـ.ش ذهبنـا لشراء لوازم الخطبة. اشتـرت والدة عبّاسـ عقدًا، قدّمه عبّاسـ إليّ ليلة العقـد هديّة. وأنا اشتريت له هديّة ساعة. فغدًا سيقيمون مراسم خطبة العقد في بيتنا. كانـت مراسم العقد بهـذه البساطة التي توقّعتهـا. دعونا أقرباءنا من الدرجة الأولى وبعض أقرباء الدرجة الثانية. ومن ثمّ شيئًا فشيئًا عرف الكثير من الجيران والمعارف بزواجنا.

في تلك الليلـة ارتديت ثوبًا أبيض اللـون، استعرته من زوجة أخي. وارتـدى عبّاسـ بنطالًا وقميصًـا عاديّيـن، وقد أرخـى القميص فوق البنطال.

بعد إجراء العقد، أوصل عبّاس والديه إلى البيت، ثمّ رجع إلى بيتنا. صبـاح اليـوم التالي ذهبنـا إلى «**دار السـلام**» وهـي روضة شهداء

كاشان. كان يعرف الكثيــر من الشهداء. وذكر لي خواطر عنهم. كنت قد سمعت الكثير عن الحرب والإخوة في المعارك؛ إلّا أنّ حديث عبّاس كان شيئًــا آخــر، وبدا شيئًا جديــدًا وغضًّا. أساسًا، تغيّــر كلّ شيءٍ في حياتــي من لحظة إيقاع عقد الزواج، وأصبح له طعمٌ آخر. وامتلأ قلبي فــي تلك السويعــات القليلة بكلّ محبّة وعشق، يمكــن لامرأة أن تكنّهما لزوجها.

قدحٌ وملعقتان وطنجرة

فـي ذلك اليوم، وقبل أن نذهب إلـى دار السلام، تحدّثنا في البيت ما يقرب من ساعة. تكلّمنا كثيرًا. وقد سألته:

« **ما نوع المرأة التي تحبّ أن تكون شريكتك في الحياة؟**».

أجاب: «**كنت دائمًا أسـال الله أن يجعل نصـيبي امرأةً، تستطيع أن تعيش معي حياة متواضعة جدًا**».

سألته: «**وكيف ترى الحياة المتواضعة؟**».

أجـاب: «**تكـون متواضـعة بالاكتفـاء بأدنى وسـائل العيش؛ قدح وملعقتين وطنجرة** ».

ابتسمتُ. استقرّ في مكانه وسألني: «**لماذا ابتسمتِ؟**».

قلت: « **لأنّه لديّ نفس الرؤية التي لديك**».

سأل: «**كيف ذلك؟**».

أجبتـه: «**قليـلاً ما كنـت أفكّر بالـزواج، لكن في الحيـن التي كنت أفكر فيه، كنت أطلب من الله تعالى أن يرزقني إنسانًا لديه الأخلاق والإيمان؛ وكنت أحدّث نفسي أنّه إذا ما حصل ذلك، فسأكون منسجمة معـه مهمـا كانت ظروف حياتنا، حتّى لو لم يكن لدينا سـوى بضـعة أوانٍ؛ ملعقتين وقدح وطنجرة**».

وعلمت حينها، أنّه ذلك الشخص الذي تمنيتُ أن يكون من نصيبي. وكانت كلماته تلك لافتة جدًّا بالنسبة إليّ:

«**ملعقتان وقدح وطنجرة**» ؛ لأنّي كنت فيما سبق أحدّث نفسي بهذه

الكلمات نفسها، حيث كانت لديّ هذه العقيدة ذاتها.

اليـوم الأوّل من حياتنا الزوجيّة، لم يكن أكثر من نصف نهار، فقد ذهـب إلى طهران قرابة الظهر، ورجع إلى البيت بعد أسبوع، بقي يومًا واحدًا، ثمّ عاد وذهب أسبوعين، ثمّ ذهب ثلاثة أسابيع، وهكذا.

واستمـرّ على هذه الحال حتّى شهـر آذار. وكان يطول غيابه أحيانًا شهر أو أكثر. ولكنّ بقاءه معي لم يكن ليصل إلى أكثر من يومين.

في كثير مـن الأوقات التي كان ينوي فيها البقاء ليوم، كانت تتحوّل إلى نصف نهار. حتمًا كان لديه عمل في مثل تلك الأوقات. وحتّى لو لم يكن لديه عمل، لم يكن يبقى أكثر من يوم.

كان دومًـا يخبرنـا بقدومه. لم يكـن في بيتنا هاتف، فـكان يتّصل بوالدتـه، وكانت هي من تخبرني بقدومه. عندما كان يأتي، كان يذهب لرؤية أمّه، ومن ثمّ يأتي لرؤيتي.

لـم أكن أعرف طبيعـة المهمّة التي كان مضطلعًـا بها، ولكن الذي كنت أعلمه أنّها كانت خطيرة وكبيرة.

عندمـا كان يأتي إلى كاشان لرؤيتي، كلّما سنحت له الفرصة، كنت أشعـر أنّنـي مدينة له كثيـرًا. وقد كانـت أخلاقه أيضًا بنحـوٍ زاد من إحساسي بهذه المديونيّة.

عندما ذهـب في المرّة الثانيـة، استمرّ غيابـه أسبوعين أو ثلاثة. ولمّا عاد طأطأ رأسه قائلًا:

«**المعذرة**».

كان يبدو من مظهره أنّه كان يقولها من صميم قلبه. أصابني الهلع وسألت:

«**مِمَّ تعتذر؟**».

قال: «**لأنّني تركتك وحيدةً طوال هذه المدّة**».

كان هـذا دأبـه مـع والـديّ. وكان يعتـذر منهمـا؛ لأنّـه لا يستطيع زيـارة ابنتهما كثيرًا، وهما أيضًا أصبحـا مولَعين بعبّاس بقدر ما كنت مولعـةً به. وقد ازداد حبّهمـا وتعلّقهما به جرّاء هذا السلوك الذي كانا يشاهدانه منه.

وكأنّ هذا الأدب والتواضع أصبح جزءًا من شخصيّته. ذات مرّة وبينما كنّا خارجين معًا، كنّا نفتّش في أحد الشوارع عن عنوان أحدهم. قلت له:

«**اسأل أولئك الصبيَة**».

فقال فورًا: «**ماذا؟**».

تعجّبت، فقد كانت عبارتي واضحةً، لا لبس فيها. قلت:

«**ألا تريد أن تهتدي إلى العنوان؟**».

قال: «**نعم**».

قلت: «**حسنًا، اسأل أولئك الصبية**».

قال: «**هؤلاء ليسوا صبية، هم يعتبرون أنفسهم رجالًا؛ لو تعلمين ماذا يفعل في الجبهة من هم في مثل سنّ هؤلاء**».

بعدهـا، وباحترامٍ فائق، نادى تلـك المجموعة نفسها التي وصفتها بالصبية، وسألهم عن العنوان.

كثير من أقربائنا لم يحضروا عقد قراننا. ولم يكن عبّاس قد رآهم قبلًا أو تعرّف إليهم. في بعض الأوقات، حين كنّا نخرج بالسيّارة، وأرى بعض الأقرباء في الطريق، كنت أقول لعبّاس: «**هذا صهر عمّي**» كان يوقف السيّارة فورًا، يترجّل منها، يتقدّم ويسلّم عليه باحترام، ويسأله عن أحواله.

على أيّ حال، شكّلت قلّة إجازات عبّاس بالنسبة إليّ معضلةً رئيسة. كنت أودّ حلّ هذه المعضلة بأيّ طريقةٍ كانت. لا أذكر تمامًا كم كان مضى على زواجنا حينما طرحت أمام العائلة، موضوع ذهابي مع عبّاس إلى المناطق الحدوديّة[1] والعيش هناك، وأذكر جيّدًا أنّ أبي كان يعارض هذا الموضوع بشدّة. كان يقول:

«**الحياة في المناطق الحدوديّة صعبة جدًّا، خاصّةً بالنسبة إلى الغرباء. وأنا لا احتمل أن تعيش ابنتي مثل هذه الصعاب**».

ولكنّي حيث كنت أودّ من كلّ قلبي أن أقضي مع عبّاس أوقاتٍ أكثر، لم أعد أفكّر بالصعاب وأمثالها. وعلى الرغم من معارضة والدي لذهابي، صمّمت على الذهاب؛ إلّا أنّني كنت أعلم أنّ الأمر في النهاية يعود إلى عبّاس. كان عبّاس أيضًا، يودّ أخذي معه إلى هناك. كنت أظنّ أنّه ما من مشكلة أمامنا، لكن عندما علم عبّاس بعدم موافقة

(1) لمّا كان لدى عبّاس عملٌ مهمّ وخطير في الجبهات على الحدود؛ وانشغالٍ كثير، هو وغيره من المسؤولين- كانت هناك طريقة لتيسير البقاء في الجبهة، أن تعيش أُسرهم في قرى ومزارع قريبة من الجبهة والحدود، ليتسنّى لهم الذهاب إلى الجبهة والعودة منها في أقل وقت ممكن، وخصّصوا مناطق سكنيّة لهؤلاء الأشخاص.

والدي، قال:

«**فلننتظر ريثما يوافق**».

صبرنا إلى شهر بهمن من تلك السنة. وكنت أطرح موضوع ذهابي، من وقت لآخر. ذات مرّة، ولعلّه من أجل أن يحلّ هذه المسألة نهائيًّا، قال أخي:

«**تعلمين يا زهراء أنّ أبي يتحسّس جدًّا من أمر ذهابك، فلماذا تصرّين كلّ هذا الإصرار؟**».

بعدها طلب منّي بنحوٍ حاسم أن أبقى في كاشان، وأن أتابع حياتي كما في الأشهر الماضية.

قلت: «**أبقى يا أخي، ولكن بشرط**».

قال: «**ما هو؟**».

قلت: «**إذا ضمنت وأبي أنّ عبّاسًا سوف يعود حيًّا بعد كلّ ذهاب له إلى الجبهة، فسوف أبقى في كاشان عشر سنوات بالنحو الذي تقولون**».

كان هذا الدليل وهذا الشرط كالماء الذي أخمد النار، فلم يعد أمامهما من شيء ليقولاه.

في أوّل مكالمة هاتفيّة، أخبرت عبّاسًا بالأمر. شكر الله، وقال:

«**إذن، سأهيّئ بيتًا في هذه الناحية، واستعدّي أنت للمجيء ما أمكن لك ذلك**».

المنزل الجديد

قبـل عدّة أيّام من بدء عمليّات و«**الفجـر التمهيديّة**»، وفي الإجازة القصيرة التي أتى فيها عبّاس إلى كاشان، وضّبنا أغراضنا وانطلقنا. وقـد جاء معنا أيضًا أخـي الصغير محسن. فقد كان هو أيضًا من أهل الجبهة، وكانت تربطه بعبّاس علاقة وطيدة.

وصلنا إلى «**شوش**» في منتصف الليل، وواصلنا السير إلى أن وصلنا إلى محلّـة تسكنها عوائل الحرس. قبل ذلك سألـت نفسي مرارًا كيف ستكـون هذه المدينة؟ كان عبّاس قد أخبرنـي أنّ هناك نساءً أخريات أيضًا. كنت أظنّ أنّهنّ جماعات نشطة من النسوة، اللاتي يعقدن دومًا جلسـات الأنس والدرس والبحث وأمثالها. فلم أجـد شيئًا من الأمور، التي فكّرت فيها على الإطلاق؛ فقد كنّ منتشرات هنا وهناك، والبيوت بعيدٌ بعضها عن بعض.

لقـد وصلنا ليـلًا، ولم أكن أعلم مـا كان سيصيبني لـو أنّني رأيت المنطقة مرّةً أولى في وضح النهار.

كانت البيوت مهدّمـة ومتباعدة، ولم يبقَ منها صالحًا للسكن سوى بضعـة بيوت، لم تسلم هـي أيضًا من الدمار. أخذنـي عبّاس إلى أحد هذه البيوت وقال:

«**لقد خرّب الأعداء هذه المنطقة ما استطاعوا**».

لـم يكن في البيت مصباح كهربائيّ. قلـت: ماذا يمكن أن نفعل في هذه العتمة؟.

قال عبّاس: «**انتظري قليلًا، ويُسوّى الأمر**».

ذهب وجلب مصباحًا كهربائيًّا من البيت المقابل، بعدها علمت أنّه كان منزل السيّد عباديان. علّق المصباح وأناره. كانت أرض الغرفة مليئة بالتراب، والحجارة الصغيرة. وبالجملة، كان المنزل مؤلّفًا من غرفتين، ومدخل بمساحة متر ونصف، ومطبخ بالمساحة نفسها. وكان الحمّام وبيت الخلاء خارج المنزل، ولكنهما متّصلان به. لقد ساعدتني معتقداتي الدينيّة، وكذا حبّي لعبّاس على التكيّف سريعًا مع تلك الأوضاع.

كنسنا إحدى الغرف بحيث أمكننا فرش بطانيّة فيها، وكذا أعدّ أخي محسن لنفسه مكانًا للنوم في الغرفة الأخرى.

بتنا ليلتنا. في الصباح الباكر قال عبّاس:

«**هل تريدين شيئًا؟**».

قلت: «**إلى أين؟**».

قال: «**ينبغي أن أذهب إلى الجبهة**».

أردت الاعتراض، إلّا أنّني تمكّنت سريعًا من السيطرة على نفسي. فقلت:

«**اذهب، في أمان الله وحفظه**». وغادر.

أوّل صباح لي هناك كان لا يُنسى. فقد تناولت طعام الفطور عند السيّدة «**عباديان**». فتحنا باب الصداقة على مصراعيه، ونظرًا لتعاملها الودود أحبّت إحدانا الأخرى من اللحظة الأولى. بعدها، نظّفت المنزل بمساعدة أخي محسن، ورتّبنا الأغراض.

بعـد ثلاثة أيّـام، عاد عبّاس. عندما فتحت الباب لـم يدخل. كان مطأطئ الرأس. قلت:

«**لِمَ لا تدخل؟**».

قال: «**أنا خجلٌ منك**».

أحببت أن أشاكسه قليلًا، قلت: «**كيف لي أن أسامحك؟**».

قال: «**في ذلك اليوم، كنت أودّ أن أرجع سـريعًا، لكنّني لم أسـتطع، وأنا الآن خجل من الدخول**».

بقينـا مدّة سنتين في شوشـ إلى أن استُشهـد. كان في تلك المدّة دائـم الشعور بالخجل، ويعتبر نفسه مدينًا لـي. حاولت أن لا آخذ هذا الكلام على محمل الجدّ، قلت له:

«**أنت لست مدينًا لي، بل أنا من هي مدينة لك**».

في أوقات غيابه الطويل، كنت أسلّي نفسي بسهولة. وكنت على يقين أنّه كان يخصّص كل أوقات فراغه لي.

البكاء الأخير

بعـد إنهـاء إحدى العمليّات عـاد أكثر رفاقه إلى بيوتهـم، ولكنّه لم يفعل. في اليوم التالي، سمعت أنّ إحدى السيّدات كانت تقول:

«**وكأنّ السيّد (عبّاس) كريمي لا يهتمّ كثيرًا لأمر عائلته!**».

يبدو أنّ زوجها كان قد التقى بعبّاس في الجبهة، وسأله إن كان يريد العودة أم لا، فكان جواب عبّاس: «**لِمَ؟!**»

عندما عاد إلى المنطقة ورأى أنّ عبّاسًا لم يأتِ، تفوّه بهذه الكلمات.

صدقًا، لقـد احترق قلبي من سماع تلك الكلمات. في الليلة التالية، لـم تكد تمضي ساعة أو ساعتان على منتصف الليل، حتّى عاد عبّاس. ما إن فتحت له الباب حتّى استسلمت للبكاء. هاله الأمر كثيرًا، وسألني بكثير من القلق: «**هل حصل شيء في كاشان؟ لماذا تبكين؟!**».

لـم أكن قد بكيت أمامه من قبل، كنت دائمًا أتحمّل الصعاب. وكان ذلك البكاء الأوّل والأخير أمامه. قلت:

«**كنت قلقةً عليك، ليس على نفسي أو أيّ أحد آخر**».

سأل: «**وما الذي حدث؟**»

قلت: «**أحد رفاقك...**».

مـا إن تفوّهـت بهـذه الكلمة حتّـى فهم الموضـوع. قال: «**لا بـدّ أنّ أحدهم قال شيئًا**».

وفيما كنت لا أزال أبكي، قلت: «**نعم**».

قال: «**المسألة حتمًا بسبب عدم مجيئي البارحة. أقال شيئًا؟**».

قلت: «**نعم، البارحة لم يكن لديك عمل ومع ذلك لم تأتِ**».

قال: «**وهل تصدّقين مثل هذه الأقاويل؟**».

قلت: «**لا**».

قال: «**حسنًا، فلماذا تبكين؟**».

قلت: «**يا أخي! افتقدتُك**».

قال: «**إذا كنت تعرفينني جيّدًا، فلا تديري أذنيك لمثل هذه الأحاديث. أتعلمين، لم يكن المساكين يقصدون شيئًا، لكن ربّما صدرت عنهم مثل هذه الكلمات**».

ولكي يزيد من اطمئناني، قال: «**اطمئني، لو كان أمامي متّسع من الوقت، لما فضّلت مكانًا على هذا المكان، ولكنت أتيت إليك**».

تذكّرت أنّه كان أحيانًا يمرّ عليّ ولو لدقيقة واحدة. فقد صادف مرّاتٍ عدّة أنّه إذا أراد أن ينتقل من منطقة إلى أخرى، وكان بيتنا في طريقه، كان يأتي، ليلقي التحيّة عليّ ويسأل عن أحوالي هنا، من أمام الباب، ومن ثمّ يذهب. والآن قد مضى 17 أو 18 يومًا ولمّا يأتِ.

قلّما أذكر، سواءً حين كنت في كاشان أم عندما ذهبت إلى الجبهة، أنّه كان يأتي إلى المنزل أشعث أغبر. فقد كان يذهب إلى الحلاّق، وبعدها إلى الحمّام[1]، ومن ثمّ يأتي إلى المنزل. كما كان يولي أهميّةً كبرى لتأمين حاجاتي. كان وضعنا أفضل من كثير من عناصر الحرس.

(1) سابقًا كانت تروج في إيران الحمامات العامّة للرجال، يذهبون للاستحمام. حيث كانت المياه قليلة في المنازل..وقد قلّ وجودها ونادرًا ما تتوفّر حاليًا مع النهضة العمرانيّة والاقتصاديّة التي قامت بها الثورة منذ ثلاثين عامًا ونيّف.

كان هناك أشخاص لا يفرشون السجّاد إلّا بعد جهد جهيد؛ أمّا أنا فقد كان لديّ أشياء مثل فرّامة اللحمة اليدويّة، والمكواة.

أحيانًا، عندما كان يبقى في البيت يومًا أو لنصف يوم، كان يذهب لشراء الحاجيّات. كان يجلب مؤونة أيّام عدّة من اللحم والخبز والفاكهة وغيرها. وكانت أمثال هذه المشتريات تصل إلى الذروة، قبل البدء بالعمليّات. وقد لاحظت النساء الأخريات ذلك، وكنّ يقلن:

«**كلّما رأينا الحاجّ يأتي إلى المنزل بيدين مملوءتين، ندرك أنّ وقت العمليّات قد اقترب!**».

عندما أخبرته بذلك، ضحك وقال: «**إذن، أنا لم أؤدِّ تكليفي الأمنيّ جيّدًا!**».

إلى هذا الحدّ كان يهتمّ برفاهيّتي، وكان منتبهًا أيضًا إلى أن لا يختلط شيء من بيت المال بأمورنا الشخصيّة.

الاحتياط في بيت المال

لـم يكن قد مضى علـى ولادة داود[1] كثيرُ وقت عندما ساءت حاله. وُلـد تـوًّا، وفي نفس يوم ساءت حالـه. وكان ينبغي أن نأخـذه فورًا إلى الطبيب. كانت سيّارة الحرس معه، ولكنّه لم يكن ليستعملها في الأمور الشخصيّـة. وقـد تأخّرنـا كثيرًا حتّـى أمّنّا سيّـارةً أخـرى لتنقله إلى الطبيب.

أذكـر أنّه كان يحمل بيـن معدّاته قمع صمغ للصق الزجاج. في يوم اضطررت للصق شيء. ما إن حملته حتّى رآني عبّاس فقال مباشرةً:

«**ماذا تفعلين يا زهراء؟**».

قالها بنحوٍ أثار عجبي، قلت: «**أريد أن أُلصق شيئًا**».

قـال: «**هذا خاصّ ببيت المـال. لا يمكن الاسـتفادة منـه للأمور الشخصيّة**». لقد تعلّمت منه أن لا أستخدم حتّى الهاتف لأمرٍ شخصيٍّ. وحينمـا كنت أضطرّ إلى ذلك، كنـت أسجّل عدد الدقائق، ليحسب هو القيمة ومن ثمّ يسدّدها للحرس. كان يقول:

«**لقـد أعطونـا هـذا الخطّ مـن أجـل أن يطلبونا فـي بيوتنا، عند الحاجة**».

فـي بداية زواجنا، حُوّلت قطعة أرض باسمه. لم يتسلّمها. كان قد جلـس؛ ليحسب الأمر فيما بينه وبين نفسه، فـرأى أنّ هناك الكثيرين

(1) ابن الشهيد عباس البكر.

ممّن هم أكثر استحقاقًا منه. وكان يقول:

«**أعطوا الأرض لواحدٍ منهم**».

قيل له: «**وماذا عنك أنت؟**».

قال: «**بالنسبة إليّ، حيثما أذهب تتبعني أرضي**».

لقد كان أمرًا محسومًا عنده، أن لا يخلط مقدار رأس إبرة من بيت المـــال بالأمور الشخصيّة. لم يأتِ يومًا بشـــيء من بيت المال، ولا بأيّ من وسائل العمل إلى البيت.

فقد الأصحاب

قبـل أيّام من عمليّات « **والفجر 1**»، أتـى لساعات، ثمّ ذهب بعدها إلـى الجبهة، ولم يعد إلّا بعد العمليّات بيومين. فقد طال غيابه حينها نحو عشرين يومًا.

وقـد أخبرتني بعض السيّدات، اللاتـي كان أزواجهـنّ في الجبهة وعادوا مباشـرةً بعد إنهاء العمليّات، أنّ عبّاسًـا عانى مصاعب كثيرة وشهـد مصائب كثيرة، منها: شهادة «**رضـا چراغـي**»؛ فقد كان هو من سحب جثمانه إلى الخطوط الخلفيّة.

كان «**رضا چراغي**» واحدًا من الطلبة، الذين اقتحموا وكر التجسّس الأمريكيّ (السفارة الأميركيّة) في طهران، ومن أوائل الأشخاص الذين ذهبـوا إلى كردستـان لقتال المعاديـن للثورة، حيث التحـق بمجموعة الحـاجّ أحمد متوسّليان. ومن حينها تعـرّف بعبّاس ليصبحا صديقين، وعلى حدّ علمي، كانت هذه الصداقة تكبر وتشتدّ يومًا بعد يوم.

مـرّت ستّة أو سبعة أشهر على زواجنـا، لكنّ مجموع الأيّام والليالي التي قضيناها معًـا لم يتجاوز الأسبوعين. لم أكن قد خبرت بعد شيئًا مـن معنويّاتـه، قلـت: «**لقد تلقّـى حتمًا ضـربات كثيـرةً مـن الناحية المعنويّـة**». لـم أكن أعلـم ماذا ينبغـي أن أفعل عند مجيئـه، أو كيف سأواسيه وأطيّب خاطره.

لكـن عند مجيئه كان كلّ شيء علـى خلاف توقّعي. لقد كان بشوشًا كعادتـه ومسرورًا؛ ظننـت أنّ كلّ مـا سمعته كان غيـر صحيح، ولكن،

أَيُعقل؟ قال:

«ماذا لديك من أخبار عن كاشان؟ ماذا فعلت في الأيّام الماضية؟ وكيف أمضيتها؟».

وكأنــه لم يكن في حــرب، وكأنّه لم يشهد فاجعةً. لــم أُجبه. سألته بتردّد:

«ماذا عن الحرب؟ وكيف كانت العمليّات؟»

أشار بيده وقال: **«إيه، لم تكن سيّئة، كانت جيّدة»**.

انتابتني الحيرة. قلت: **«جيّدة، فقط؟!»**.

وكشخصٍ متعجّب مــن سماع كلام غريب قال: **«حسـنٌ، نعم، وهل كان من المقرّر أن تكون هناك أخبار أخرى؟»**.

قلت: **«وماذا عن كلّ هذه المصاعب التي قيل: أنّك عانيتها؟ وكلّ هذه المواجهات؟»**.

فقال: **«إنّها الحرب. وهل يوزّعون الحلوى في الحرب؟»**.

قلت: **«أي: إنّك لست مستاءً؟»**.

لعلّــه رآنــي ألــفّ وأدور فقــال: **«اسـمعي يا زهـراء، ينبغـي للحرب بـكلّ خصوصـيّتها أن تبقـى فـي الجبهـة، وللحيـاة الشخصـيّة بـكلّ خصوصيّاتها أن تبقى في البيت»**.

بعدهــا أدركت كم كان حزينًا لشهادة رضــا چراغي، وقد تأخّر في الحضــور يومين؛ لكي يستطيع أن يكون مــن الناحية المعنويّة، في مثل حالاته السابقة.

لقـد تعلّمـت أن أكـون كذلك بالنسبة إلـى أهلي وأخوتـي؛ فلم أكن أطلعهـم على شيء من الضغوط، والمشاكل التي أعانيها. أحيانًا، كنت أشخّص أنّه ينبغي الكذب عليهم من أجل المصلحة. فكنت أقول:

«**يذهـب عبّاس دومًا في الصباح الباكر، ويعود بعـد الظهر. ماذا يحصل لو بات ليلةً خارج البيت؟**».

أو كنـت أقـول: «**هـذه المنطقة التي نسكنها تعـجّ بالحرس، وهي آمنة جدًّا**».

كان عبّاس يعرف عقليّة أهلي جيّدًا. كان يقول:

«**إذا أحسستِ بأدنى انزعاج منّي، فيكفي أن تتّصلي اتصّالًا واحدًا ببيت أهلك**».

بعدهـا، كان يضحـك ويقول: «**يستغرق الطريـق من كاشان إلى هنـا نحـو 8 أو 9 سـاعات، ولكن من أجلك، يكونـون هنا بظرف خمس دقائق**».

كنـت أرسل الرسائل إلى والـدي ووالدتي، أكثر من الاتصال بهما. وكان عبّاس عادةً من يضـع الرسائل في البريد. فـي إحدى المرّات، نسـي وضع إحدى الرسائل في البريد. عندما عاد إلى البيت، وقبل كلّ شيء أخبرني عن الرسالة.

قال: «**اعذريني فلم أستطع أن أضعها في البريد**».

قلت: «**ها! وكيف لم تستطع؟**».

قال: «**نسيت، وبدلًا عنه قمت بعمل آخر**».

سألت: «**وما هو؟**».

قال: «**فتحتها وقرأتها**».

بعدها، وكأنّه أراد أن ينتقد بنحوٍ ودّيّ ولطيف على شيء، فقال:

«**كم كذبت في هذه الرسالة يا زهراء**».

لـم أتراجع، قلت: «**هذه الكذبات هي التـي تبقيني هنا عندك، فلو أقول الحقيقة، لما تركني والدي هنا لحظةً واحدةً**».

لـم أكن مستعـدّة لاستبدال نعمة رؤيته بأيّ شـيء. كنت أتحمّل من أجله كلّ أنواع المعاناة، حتّى معاناة الحمل، وما بعده.

الولادة، يا زهراء

كان قد بقي أمامنا شهر على ولادة «**داود**»، فذهبنا من «إسلام آباد» إلى «أنديمشك». كان من المقرّر أن تُنفّذ عمليّات في الجنوب. وكان عبّاس كالمعتاد، قليلًا ما يأتي، ويتأخّر مرّةً عن أخرى. كان لفترة الحمل مشاكلها الخاصّة. وكما الأوقات الأخرى، كنت أتماشى مع عدم مجيء عبّاس، ولكنّني لم أستطع تقبّل فكرة عدم حضوره عند الولادة. كانت هذه الفكرة تقلقني منذ أوائل الحمل. ولقد قرأت قبل مخاض الولادة بأيّام، زيارة عاشوراء أربعين مرةً بهذه النيّة، وهي؛ أن يكون عبّاس حاضرًا عند ولادة طفلي.

في عام 1984م، في التاسع من شهر رمضان المبارك، ما إن تسحّرت حتّى علمت أنّ أمرًا ما سيحدث. كانت بيوتنا في أنديمشك مبنيّةً في مساحة دائريّة. وكنت تستطيع من وراء النافذة أن ترى الساحة التي تجمع البيوت بشكلٍ تامّ. نظرت، فلم أرَ في الساحة أيّ سيّارة، ما يعني أنّه ما من أحد من الرجال كان موجودًا في المجمّع.

قلت في نفسي: «**ماذا سأفعل إن حانت ساعة ولادتي؟**».

اعتراني الخوف شيئًا ما. ما إن أذّن المؤذّن، حتى أديّت صلاة الصبح، ومن ثمّ شرعت بتلاوة الجزء التاسع من القرآن.

نحو الساعة الخامسة والنصف أو السادسة صباحًا، رنّ الجرس. فتحت الباب. لم يكن شيء يسعدني في تلك الأحوال والظروف أكثر من رؤية عبّاس. دخل واستلقى وهو في لباسه العسكريّ. جلست

بجانبه. سألت عن أحواله. قلت: «**ما الذي حصل لتعود صباحًا بهذه السرعة؟**».

كنت أظن أنّه أتى؛ ليبقى إلى الغد. فقال: «**إنّي ذاهب**».

قلت: «**إلى أين؟**».

قال: «**إلى طهران**».

قلت: «**معذرةً، الآن وقد أرسلك الله، لا يمكنك الذهاب إلى مكان**».

قال: «**غير ممكن، فلدينا جلسة بعد الظهر، عليّ أن أذهب حتمًا**».

قلت: «**لا سبيل إلى ذلك إطلاقًا، ينبغي لك اليوم أن تبقى هنا**».

نظر إليّ بتعجّب وسأل: «**هل هناك خطب ما؟**».

قلت: «**الظاهر نعم**».

قال: «**لا! هل تمزحين؟**».

قلت: «**لا صدقًا أقول**».

نظر إليّ نظرة فيها ريبة وقال: « **يُقال: إنّ النساء في مثل هذه الأوقات يبدأن بالغنج والدلال**».

قلت: «**ولكنّ الأمر ليس كذلك** ».

عندما رأى القضيّة جدّية، قال: «**إذن، قومي لآخذك إلى كاشان**».

قلت: «**ليس أمامنا متّسع من الوقت للذهاب إلى كاشان**».

امتلأت عيناه قلقًا، وقال: «**فما العمل الآن برأيك؟**».

قلت: «**لا شيء، نذهب إلى المستشفى**».

لم يكن في مستشفى أنديمشك قسم خاصّ بالولادة. وفيما كنّا

نتـداول الأمر فيما بيننـا رنّ جرس الباب. ذهب وفتـح الباب، وإذا به يهلّل ويرحّب بأحدهم.

كان ترحيبـه شديدًا ومن صميم القلب، فقلـت: لا بدّ أن يكون أحد الأقارب. ذهبت لأجد أنّ حدسي قد صحّ، كانت والدته مع أحد إخوته. لعلّـه لم يكن شيء أسعـد على قلب عبّاس في تلـك اللّحظات من رؤية والدته.

كانت «**دزفول**» المدينة الأقرب إلى أنديمشك. ذهبنا برفقة والدته إليهـا. سأل عبّاس أحدهم عن المستشفى، فأجابه: «**هناك واحدة في آخر هذا الشارع**».

شكـره عبّاس وانطلق بالسيّارة. سار قليـلًا، ثمّ توقّف وأخرج رأسه من النافذة وسأل الرجل نفسه: «**معذرةً، ما اسمها؟**

قال الرجل: «**يُقال لها مستشفى «يا زهراء»**».

فجـأةً تهلّل وجـه عبّاسـ، وكأنّ كيانه انقلب من سمـاع هذا الاسم المقدّس. فصاح من صميم قلبه: «**يا زهراء**»

ذُهـل الرجل، أنـا ووالدته تسمّرنا فـي مكاننا. قلت: «**مـاذا حدث فجأةً؟**».

قـال وكأنّه كان يخاطب نفسه: «**رمز عمليّات الفتح المبين هو «يا زهراء»**، وأنت زهراء، وهنا مستشفى «**يا زهراء!**».

وصرخ ثانية من أعماق القلب: «**يا زهراء**» وانطلق.

كان عبّاس يحـبّ الزهراء عليها السلام حبًّا (لا يوصـف). وقد كان يكرّر

دائمًا ويقول: كأنّ الزهراء عليها السلام تحوطنا برعايتها. وعلى أساس هذه الرعاية، كلّ شيء وكلّ حدث يحدث لي، يبدأ بالاسم المقدّس «**يا زهراء**».

لم يكن حبّ عبّاس للزهراء عليها السلام، بنحوٍ يمكن وصفه أو حدّ يحدّده. وهنا أذكر خاطرة، فبعد شهادته، قال الشيخ حسين أنصاريان مرّةً:

«**في إحدى مجالس الدعاء والمديح التي كنت أتلوها للمجاهدين، لفت نظري اضطراب أحد التعبويّين وعدم تحمّله. كان يبكي من دون حياء ويضجّ؛ وكأنّه كان قد انقطع عمّا حوله، وكأنّه ليس موجودًا في هذه الدنيا. وقد شدّ انتباهي إليه. بعد إتمام مراسم الدعاء، سألت عن قائد اللواء. وأردت أن أسأله عن ذلك الشابّ، لكنّني لم أكن أتوقّع أن يكون قائد اللواء هو ذلك الشاب نفسه**».

حتى إنّ الشيخ حسين سعى كثيرًا للمشاركة في تشييع جثمان عبّاس، وكان يقول:

«**لا أريد أن أُحرم ثواب هذا التشييع**».

في ذلك اليوم، عندما وصلنا إلى المستشفى، قال الدكتور: «**ينبغي إدخالها إلى المستشفى فورًا**».

كتب لائحة مطوّلة وسلّمها إلى عبّاس وقال: «**اذهب فورًا وأحضر هذه الأدوية إضافةً إلى بعض الحاجات الأخرى**».

ذهب، ولمّا رجع، كانوا قد نقلوني إلى القسم الخاصّ بالنساء. هناك، عندما رأيت عبّاسًا على حافّة الدرج في الداخل، نسيت

أوجاعي. كاد أن يُغمى عليّ. فجأةً علا صوت إحدى الممرّضات: «**أيّها السيّد، إلى الخارج، إلى الخارج!**».

ممرّضة أخرى أتت للمساعدة، صاحت أيضًا: «**ماذا تفعل هنا؟**».

أدرك عبّاس مؤخّرًا ما الذي فعله. طأطأ رأسه، ترك اللوازم التي اشتراها أرضًا وخرج. لقد كان قلقًا عليّ بشدّة بحيث لم يلتفت إلى أنّه تجاوز نقطة الحراسة، ودخل إلى القسم الخاصّ بالنساء.

وُلد «**داود**» عند الساعة الثانية عشرة والربع، فغسلته الممرّضات وألبسنه ثيابه، وسلّمنه إلى والدة عبّاس وقلن: «**خذوه إلى البيت**».

في ذلك اليوم، كانت «**دزفول**» قد قُصفت بالصواريخ، وكان من المحتمل أن يُعاد قصفها ثانيةً؛ لذا قالوا: ينبغي لهذا الولد أن لا يكون هنا؛ أمّا بالنسبة إلى أمّه فيمكنكم أن تأخذوها بعد عدّة ساعات.

وصادف أن قُصفت «**دزفول**» ثانيةً بعد ساعتين من نقلي إلى البيت؛ لهذا السبب، وعلى سبيل المزاح، أطلق نسوة الجيران على الصبيّ اسم «**داود الصاروخيّ**». وكنّ يقلن: «**لقد جلب الصواريخ معه، قبل ولادته وبعدها**».

قلب رؤوف

كان عبّاس كثيرًا ما يشكرني على كلّ عمل بنحوٍ يفوق الحدّ. وبعد ولادة داود ازداد امتنانه وشكره لي عن السابق. في اليوم الأوّل على وضعي الولد، كان فقط يسأل عن أحوالي. وكلّما انتظرت أن يسأل عن حال «**داود**»، لم يسأل. حين عاد بعد يومين، رأيته لا يسأل عن حال «**داود**». قلت:

«**إنّك لا تسأل عن حال الصبيّ أبدًا، ولا تفتأ تسأل عن أحوالي**».

قال: «**إذا كنت أنت بحال جيّدة، أكون أنا بحال جيّدة، وداود وكلّ شيء**».

بعد يومين أو ثلاثة، عندما علمنا أنّ والديّ قادمان لزيارتنا، قلت له:

«**إلى الآن، لم أطلب منك مرّةً أن تبقى عندي كثيرًا، ولكنّي الآن أقترح أن لا تذهب إلى الجبهة ما داما هما هنا**».

وبناءً لطلبي، كان عبّاس لمرّة أولى وأخيرة، وفي مدّة يومين، يعود إلى المنزل ليلًا من المكان الذي يكون فيه، إلى أن غادر والداي. في أحد هذين اليومين، أخذ والداي الطفل إلى «**دزفول**» ليختتناه.

بعد يومين، وحين غادر والداي، ودّعني عبّاس أيضًا، وذهب إلى الجبهة. لا أريد أن أقول أصبحت وحيدة؛ لأنّ السيّدة دستواره[1] والسيّدات الأخريات كنّ إلى جانبي، وكنّ يعتنين بي ويعطفن عليّ

(1) زوجة أحد رفاقه في الحرس.

كأخت من أخواتهنّ. ولكن لوجود الرجل في مثل تلك الأوقات قيمة أخرى. والنساء يعلمن جيّدًا أهميّة وجود الرجل في مثل تلك اللحظات.

عاد عبّاس بعد بضعة أيّام. وقد طاب جرح داود بعد الختان، وكان يجب علينا الذهاب إلى «**دزفول**» لفكّ الضمادة. ذهبنا، وعندما دخلنا العيادة، بدا على وجه عبّاس أنّه ليس على حاله. كان من الواضح أنّه مرتبك. طلب منّي الطبيب أن أفكّ قماطه، بعدها توجّه إلى عبّاس وقال: «**أمسك بيدَي الطفل**».

قمت لأفكّ القماط، فقال عبّاس فورًا: «**أنا خارج**».

ذهبت إليه، قلت بهدوء: «**ما معنى خروجك؟ تمهّل**».

قال: «**لا يمكنني النظر البتّة، دعيني أخرج**».

قلت: «**لا يصحّ أن تتركني وحدي**».

قال: «**صدّقيني زهراء، لا أستطيع التحمّل**».

لم ينتظر حتّى أردّ عليه، وخرج مسرعًا. ولكنّه سرعان ما أرسل إحدى السيّدات إليّ.

حاله هذه كانت ملفتةً بالنسبة إليّ من جهة، وتدعو إلى العجب من جهة أخرى قلت في نفسي:

«**شخص في الحرب رأى الكثير من القتلى، ضمّد جراح الكثير من الجرحى، ونقل الكثير من الجثامين بيديه، كيف لا يمكنه تحمّل رؤية طفل موجوعًا لحظات عدّة؟**».

كان لعبّاس أيضًا مثل هذه الروحيّة فيما يخصّني، ففي إحدى المرّات جُرِحت يدي بزجاجة، لم يكن الجرح بليغًا. ما إن وقعت عيناه على الدم ينزف من يدي، حتى انخطف لونه. لا أذكر ماذا كان في يده، رماه أرضًا، وقال: «**قومي لنذهب إلى المستشفى**».

أردت أن أكبس على الجرح للحؤول دون النزف، فقال: «**لا تلمسيها، علينا الذهاب إلى المستشفى**».

قلت: «**ماذا أصابك؟ وأنت الذي رأيت الكثير من الجراح والإصابات، لماذا تهوّل الأمر؟!**».

لا أدري كيف يمكن الجمع بين الروحيّة العسكريّة ومثل هذه العاطفة. من ناحية أخرى، لو نزلت أسوأ البلاءات على رأسه، كانت عنده كلسعة بعوض، وكأنّ شيئًا لم يحصل.

دائمًا، عندما كان أحدنا يرجع من مكان ما، سواءً أنا أم عبّاس، كان الآخر يقوم له احترامًا. أحيانًا كان يقوم لي إذا ذهبت إلى المطبخ ثمّ عدت. كان يفعل هذا دومًا.

ذات مرّة، حين عدت إلى البيت قام جاثيًا على ركبتيه، ولم يستطع القيام تمامًا كعادته. شعرتُ أنّ مشكلة قد ألمّت به. في الواقع، خفت أن أنظر إلى قدميه، وسألته فقط:

«**هل حدث شيء؟**».

قال: «**ليس بي شيء، حالي جيّدة والحمد لله**».

وكأنّه فهم من نظراتي أنّني لم أقتنع من إجابته، فقال بغية صرف

انتباهي عن هذا الأمر:

«**أصبحت متطلّبة جدًّا يا زهراء، إنّها المرّة الوحيدة التي لم أقم فيها احترامًا لك، هل يجب عليك أن تتكلّمي بهذا النحو؟**».

على الرغم من أنّني كنت أعلم أنّه يمزح، قلت: «**لا قدّر الله أن أطلب منك مثل هذه الأشياء**».

قال: «**إذن ماذا؟**»

قلت: «**بنظري أنّ شيئًا ما حصل لرجلك**».

قال: «**لا يا امرأة، لم يحصل لرجلي شيء**».

كان من المستحيل أن تكون رجله سالمةً ولا يقوم لي احترامًا. أصررت عليه كثيرًا، حتّى أفصح في النهاية عمّا جرى فقال:

«**في الحقيقة، مرّت عدّة أيّام لم أستطع فيها خلع حذائي العسكريّ. والآن، قد تعفّنت أصابع قدميّ داخله، أردت الوقوف فلم أقدر. إنها تؤلمني جدًّا**».

حاولت أن أخلع جواربه بهدوء وبحذر شديد. كادت حدقتاي أن تخرجا من مكانيهما من هول ما رأيت. كانت أصابع رجليه قد صارت كقطع لحم مقليّ! وكانت تؤلمه بشدّة لمجرّد لمسها. لكنّ العجب، أنّه لم يكن يحبّ إظهار ذلك أبدًا.

يومها، أتى قرابة الظهر، فقط من أجل تهوية رجليه وتحسين وضعهما. غسلتهما عدّة مرّات بالماء الدافئ، ونشّفتهما بمنديل جافّ ونظيف. لم يتغيّر وجهه ولو مرّةً واحدة من شدّة الألم، ولم يتأوّه. كنت

أعلم الوجع الذي ينتابه، لكنّه لم يكن يظهر ذلك.

فـي اليوم التالي، كلّما ألححت عليه ليبقـى ريثما تتحسّن حاله، لم يقبل. انزعجت منه، وقلت:

«**كن منصفًا، كيف يمكنني أن أتحمّل ذهابك وأنت في هذا الوضع؟ حبّذا لو تبقى يومًا واحدًا على الأقلّ**».

نظـر إليّ نظرة ودودة وقـال: «**زهراء، تقـع على عاتقي مسـؤوليّة أرواح هؤلاء الشباب. لا يمكنني البقاء أكثر**».

كانـت روحيّة التقديـر والاحترام هذه موجودة عنـده في كثير من الأمـور. في يـوم من الأيّام، وعندما كنت في كاشـان، أتى هو بعد مدّة من الجبهة، وكان مصابًا بزكام شديد، فأعددت له حساءً. وصادف أن كانت أمّي مصابةً بالزكام أيضًا. وسكبت لكل منهما قليلًا من الحساء. ومـا أن رشفـت أمّي الرشفة الأولى حتّى أومـأت لي، من دون أن يلتفت عبّاس، وهمست: «**إنّها مالحة**».

تذوّقـت قليلًا، فوجدت أنّ كلامها صحيـح. نظرت إلى عبّاس. كان يأكل بنحوٍ وكأنّ لا مشكلة في الحساء. سألته: «**هل أعجبك؟**».

قال: «**جدًّا**».

قلت: «**أليست مالحة؟**».

قال: «**من قال إنّها مالحة؟ بل هي لذيذة جدًا**».

قلت: «**بصدق أقول، أليست مالحة؟**».

قال: «**بالنسبة إليّ ليست مالحة**».

قلت: «**أي ليس فيها أيّ مشكلة؟**».

قال: «**هل تريدين الصدق، حامضة بعض الشيء فقط**».

فضحكنا جميعًا.

هكـذا كان تعامله في كلّ شيء، حيث كان يمدّني بالمعنويّات كثيرًا، لكـي أقدر علـى تحمّل الصعـاب. أساسًا كانـت روحيّة عبّاس روحيّة المساعدة والليونة، وليست روحيّة الانتقاد.

كان دائـم المساعـدة. فطوال فتـرة حملي لم يعطنـي يومًا لباسه المتّسـخ لأغسلـه. لم يكن يحضـره إلى البيت أصلًا، بـل كان يقوم هو بغسله في المنطقة التي يكون فيها.

إلى «دزفول» والصواريخ

بعد أن كُلّف لواء «**محمد رسول الله**ﷺ» بمهمّة جديدة في منطقة الغرب، ذهبنا، وجميع العوائل التي كانت هناك، إلى إسلام آباد، بأثاثنا ومتاعنا وكلّ حاجيّاتنا.

لم نكن قد استقررنا جيّدًا في «**إسلام آباد**»، حتّى أُخبرنا بأنّ على اللواء العودة إلى منطقة الجنوب. وهذه المرّة ذهبنا إلى «**دزفول**» بدل «**أنديمشك**»، وأيضًا بأثاثنا ومتاعنا. كان هناك أيضًا مجمّعات سكنيّة، ومرةً أخرى بدأنا يومًا جديدًا .

في «**أنديمشك**» لم نكن نعرف شيئًا عن سقوط الصواريخ وأمثالها. كانت النسوة يقلن على سبيل المزاح: إنّ أحد أقرباء زوجة صدّام كان هناك، وقد هدّدته زوجته أن إذا قصفت أنديمشك سأريك. على كلّ حال، كانت «**أنديمشك**» أكثر مناطق الجنوب أمنًا؛ أمّا «**دزفول**» فكانت على العكس.

عندما كان صدّام يعلن أنّه سيقصف دزفول بالصواريخ أو بالطائرات، كانت الصواريخ تتساقط تمامًا في الموعد الذي كان قد حدّده.

لقد اعتاد الناس على هذا الأمر؛ كلّما كان يعلن أنّه سيقصف المنطقة، كانوا يخرجون من المدينة، ليعودوا بعد ساعة أو ساعتين.

كان يقصف الصواريخ في أوّل الوقت، وبعدها بربع ساعة، ثمّ يجدّد القصف على المكان نفسه الذي سقطت فيه الصواريخ السابقة، حيث

كان يعلـم بتجمّـع النـاس لإسعـاف الجرحى، ونقـل المصابين. ولهذا السبب، هجر أغلب النـاس المدينة.

الملفـت أنّه في تلـك اللحظات كانت تكثر أحاديثنـا ودعاباتنا. كنّا نمازح بعضنا بعضًا، نخوض في كلّ المواضيع، إلا موضوع الخوف. ذات مرّة، كان من المقرّر أن نُنقل إلى «**أنديمشك**»، قالت إحدى السيّدات: «**أنا لن أذهب، إذا كان شيء سيحصل لي هنا، فسيحصل لي أيضًا في أنديمشك**».

كانت عروسًا، قد تزوّجـت حديثًا. كانت تصرّ كثيرًا على أن تجتمع جميـع النسوة في بيتها ولا يتحرّكن من مكانهـنّ. أنا مثلها، كنت أصرّ علـى البقـاء، وكلّما حاولت الأخريـات ثنيي عن رأيي، لـم يفلحن. في النهاية، وضعت السيدة «**عباديان**» عباءتها عنها، وقالت: «**إذًا، أنا أيضًا لن أذهب**».

كانـت أمًّا لولدين، كانا قد أُرجعا يومها من المدرسة. وكان الاثنان يبكيان. قلت لها: «**ما دخلك أنت بي؟**».

قالت: «**لي دخالة. فإذا لم تأتي معي، فلن أتحرّك من مكاني**».

بعدهـا قالت: «**أقول فقط؛ إنّه إذا حدث شـيء لطفليّ، فإنّ دمهما بعنقك**».

عندما رأيت أنّها ملحّة أكثر منّي، قلت: «**حسنًا فلنذهب**».

والعروس أيضًا أقنعناها بوسيلةٍ أو بأخرى بالذهاب معنا.

فـي «**أنديمشـك**»، كان هنـاك بيتان خاليـان، للعوائـل التي تسكن

هناك. أفرغوا أحدهما، وسلّمونا إياه، وبقي الآخر في أيديهنّ. كنّا نحو 25 أو 26 امرأة، اجتمعنا في ذلك المنزل.

فـي الصباح التالي، عدنا إلى «**دزفول**». وهناك أدركنا كم قد لطف الله بنـا. فقد سقط صاروخ بالقرب من منازلنا. تمامًا على منزل تلك العروس الجديدة، حيث سوّي بالأرض وأتلف جهازها الذي كان لا بأس بـه، ولكنّها لم تأسف على أيٍّ من أثاثهـا. كانت فقط تشكر الله؛ كوننا لم نسمع البارحة كلامها. وكانت تقول:

«**لو أنكنّ بقيتنّ، لكنتنّ الآن مقطّعات إربًا إربًا**».

في بيتنـا كان الزجاج محطّمًـا ومتناثرًا على المـكان نفسه، الذي كنت أنـام وداود فيه. والتلفاز - أيضًا، وبعضـ الوسائل الأخرى- كان مطروحًا على الأرض. كانت السيّدة عباديان تقول:

«**فكّري بالأمر، ما كان حالك لو كنت بقيت البارحة هنا؟**».

لم تسنح الفرصة لصديقتنا العروس الجديدة، أن تلملم أغراضها، فسرعان ما وردها خبر شهادة زوجها.

الطبيب الحقيقيّ وصلاة جعفر الطيّار

إحدى المشاكل التي كنّا نعاني منها في المدن الصغيرة، كـ «**إسلام آباد**» و«**دزفول**» كانت عدم وجود الطبيب الماهر. وحتّى لو وُجد، لم نكن نعلم به.

في بداية شتاء العام 63 هـ. ش، ابتلي داود بحساسيّة مزمنة، كان يسعل سعالًا حادًّا، مصحوبًا بارتفاع في الحرارة، وضيق في التنفّس. أحيانًا كان نفسه يضيق إلى حدّ، كنت أشعر فيه أنّه لن يستطيع التقاط أنفاسه ثانيةً. عرضناه على عدّة أطبّاء، كان كلّ واحد منهم يقول أشياء ويصف بعض الأدوية، ولكن دون فائدة. كان تشخيص الطبيب الأخير، الذي عاينه، أعجب من الجميع؛ كان يقول: «**هناك غدّة في عنقه، ينبغي إجراء عمليّة لها**».

طوال المدّة التي كنّا فيها في الجبهة، لم أكن أخبر عبّاسًا بشيء عن أوجاعي. لكن عندما كنّا نذهب إلى كاشان أو إلى طهران، كنت أخبره؛ لأنّني كنت أعلم أنّه أفضى بالًا، وكذا هناك أطبّاء جيّدون. وهذا كان برنامجي بالنسبة إلى «**داود**» أيضًا. بالمحصّلة، في تلك الأيّام، قلما كان عبّاس يجد وقتًا لزيارتنا، فكيف يأخذنا إلى كاشان أو طهران.

بعد تشخيص ذلك الطبيب، قرّرت أن لا أعرض «**داود**» على طبيبٍ آخر ما دمنا لم نذهب إلى طهران. كنت أرى أنّ ذلك أفضل من أن يأخذ كلّ هذه الأدوية، المختلفة والمضرّة بصحّته.

أينمـا كنّا نذهب، كان السيّد «**صـالحي**» وزوجتـه يأتيان معنا. فقد كان مكلَّفًـا من قبل اللواء، بقضاء بعض حاجات وطلبات العوائل خارج المنزل، والتي من ضمنها أخذ المرضى إلى الأطباء. كان كلّ عدّة أيّام يأخذ موعدًا مـن أحد الأطبّاء، ويأخذ المرضى جميعًا إليه. في صباح أحـد الأيّـام، أصابـت «**داود**» حمّى شديـدة، وكان يغلي مـن الحرارة، وصدره يصدر صوت خرير وقد اشتدّ به السعال. جاءني السيّد صالحي وقال:

«**أخذت موعدًا من الطبيب، هيّئي نفسك لتذهبي معنا**».

قلت :«**أخذته إلى الطبيب عدّة مرّات وما من فائدة**» .

قال:«**فماذا تريدين أن تفعلي؟**».

قلت:«**الأمـر واضـح، حيـث إنّي لم أسـتفد من الذهـاب إلى هؤلاء الأطبّاء، فإنّي لن أذهب ثانيةً**» .

لـم أكن أتوقّع منه أن يقول شيئًا؛ لذا حيّيته وأغلقت الباب. وما هي إلّا لحظـات حتّى أتت إحدى السيدات وكلّمتني عند الباب قائلةً: «**حال طفلك مزرية، لِمَ لا تريدين الذهاب معنا؟**».

قلت: «**لِمَ أذهب إن لم يكن هناك من فائدة؟**» .

قالت: «**إذًا، ماذا تريدين أن تفعلي؟**» .

قلـت: «**إن شـاء الله، عندمـا نذهب إلى طهـران ، آخـذه هناك إلى طبيبٍ جيّد**».

اتّسعـت حدقتاهـا في عينيهـا ، وقالت بانزعـاج: «**كم أنـت عديمة**

المسؤولية. هذا الطفل يحترق من الحرارة، وتريدين تركه إلى حين الذهاب إلى طهران؟».

نظرت إليها ولم أقل شيئًا، دخلت، وأغلقت الباب. بعدها بدقائق، جاءت السيّدة «**عباديان**» أيضًا. لم أرضَ بالذهاب معهنّ، وحين ذهبوا، فرشت سجّادة الصلاة بقلب كسير، وضعت «**داود**» أمامي، صلّيت صلاة جعفر الطيّار، ثمّ حملته بين يديّ وتوسّلت بالإمام الحسين عليه السلام. خاطبته وأنا أبكي:

«**سيّدي ومولاي، أنت تعلم لِمَ أتينا إلى هنا. إنّي أودعتك ابني، فسل الله أن يشفيه لي بحقّ ابنك عليّ الأصغر**».

وضعت داود على الأرض، وهبطت إلى السجود، وبكيت ما شئت. عندما عادت النسوة من عند الطبيب، كنت قد هدأت ولم يبقَ أثر للهمّ والغم في قلبي. كنت أجمع سجّادة الصلاة، وإذا بالباب يطرق. كانت السيّدة «**عباديان**». دخلت وسألت عن «**داود**».

لم يكن قد تسنّى لي الوقت لأتفقّده. قلت: «**لا أعلم**».

نظرت إليّ نظرة مليئة بالتساؤل، وذهبت إلى «**داود**». تحسّست جبينه، وقالت بتعجّب: «**زالت حرارته**».

كنت بحال جيّدة جدًّا لأصدّق بسهولة. قلت بشكل عاديّ: «**جيّد**».

ظنّت أنّي لم أصدّق كلامها. قالت: «**تعالَي وتحسّسيه بنفسك؛ حرارته ليست مرتفعة على الإطلاق**».

تقدّمت، تحسّسته، لأجد حرارته قد انخفضت. كان يحرّك يديه

ورجليــه بهدوء، ويناغي. وضعت السيّدة «**عباديـان**» أذنها على صدره، فازداد تعجّبها؛ «**لم يعد صدره يخرّ كما في السابق**».

ومرّة ثانية قلت: «**جيّد**».

قالت: «**ما تعنين بجيّد؟ ماذا فعلت ليتعافى هذا الطفل؟**».

قلت: «**لا شيء**».

قالت: «**قولي الحقيقة، لا بدّ أنّك أخذته إلى الطبيب**».

رأيــت أنّها أصبحت فضوليّة، فأخبرتها بالأمر. قالت: «**إذن، قولي: أنّك أخذته إلى الطبيب الحقيقيّ**».

لم يمرضــ «**داود**» بعدها ثانيــةً، إلى أواخر شهــر آذار[1]، فقد كان شهر آذار شهرًا مليئًا بالحوادث.

الوداع الأخير

مــع حلــول الثاني عشر مــن شهــر آذار (1984)، بدأ العــراق ثانيةً بحرب المدن. بعــد أربعة أيّام، قُصفت «**دزفـول**» بثمانية صواريخ. لم يسقــط أيّ منها على مجمّعنــا السكنيّ، ولكنّها أثّــرت بشدّة على عمل الشبــاب وحياتهم. ولعلّ ذلك كان في اليوم نفسه الذي جاء فيه السيّد «**صالحي**». ظننت أنّه تقرّر نقلنا ثانية إلى «**أنديمشك**»، ولكنّني تعجّبت من سماعه يقول:

«**لقـد حجزنا لجميعكـنّ تذاكر للقطار، وعلى كلّ واحدة منكنّ أن تعود إلى بلدها**».

(1) إسفند الشهر الاخير من السنة الهجرية الشمسية في الجمهورية الاسلامية.

لم ترضخ بعض السيّدات للضغط. وأنا أيضًا قلت: «**لن أعود**».

وربّما كنت أكثر تشدّدًا من الأخريات. فقد مضى أكثر من أسبوعين لم أرَ فيهما عبّاسا. وكنت أنتظر رؤيته. ولو أردت العودة، فينبغي حتمًا أن أراه أوّلًا.

بعد أن أصبحت بعض النسوة اللواتي أردن الذهاب جاهزات، أوصلهنّ السيّد «**صالحي**» إلى محطّة القطار. ولمّا عاد قال لي:

«**سوف تقوم قوّاتنا بعمليّاتٍ كبيرة بعد عدّة أيّام، وربّما تطول، وقد أوصى الحاج، نفسه، أن تذهبي إلى كاشان؛ ليرتاح باله**».

ما إن قال ذلك، حتّى قلت: «**لنستخر، ولنسلّم الأمر إلى الله**».

استخرت على الذهاب، فكانت نهيًا. قلت في نفسي : «**فلأبقَ**».

وحين أراد السيّد «**صالحي**» نقل زوجته إلى طهران، عرض عليّ الذهاب معهما، ولكنّي رفضت.

في صباح اليوم التالي، عاد السيّد «**صالحي**» من طهران، ومرّةً أخرى، ألحّ عليّ وعلى السيّدات اللواتي بقين، أن ينقلنا إلى طهران، فلم نرضَ. وبينما كان يغادر إلى الجبهة قلت له:

«**قل للحاج عبّاس أن يطمئنني عن أحواله بأيّ طريقة كانت**».

آخر مرّة رأيت فيها عبّاسًا، كانت بعد مضيّ ثلاثة أسابيع على مغادرته. فقد صادف أن عاد، وظننت للوهلة الأولى أنّه سيبقى معنا لساعات، ولكن بعد نصف ساعة جاء أولاد السيّد «**عبادیان**» قائلين إنّ هناك من يريده عند الباب.

ذهب وعاد بسرعة، ثمّ قال: «**يريد الأخوة أن يروا داود**».

أخـذه إليهم، ثمّ عاد به بعد عدّة دقائق. رأيته يتوجّه نحو الخزانة، تنـاول لباسه العسكريّ ليلبسه. إلى تلـك اللّحظة، كنت أدعو الله أن لا يكونوا قد أتوا في طلبه. قلت: «**إلى أين؟**».

قال: «**ينبغي أن أذهب إلى الأهواز فلدينا جلسة هناك**».

وقف عند الباب، انتعل حذاءه العسكريّ وقال: «**هل تريدين شيئًا؟**».

كان قلبي يغلي مخافة أن أفقده. لم أكن أودّ أن يغادر بهذه السرعة. وكما العادة، حاولت المحافظة على رباطة جأشي.

قلت: «**لا شيء، مع السلامة**».

قال: «**في أمان الله**».

قلت: «**في أمان الله**».

كان دائمًـا حيـن يقـول «**فـي أمـان الله**» ينطلق ويذهـب. لكن هذه المـرّة، لم يقدّم رجلًا أمـام أخرى. كان مطأطـئ الرأس. بعدها رفع رأسه بهدوء، نظر في وجهي، لا بدّ أنّه لاحظ تعجّبي. قال:

«**حسنًا، ألا تريدين شيئًا؟**».

قلت: «**لا**».

فقال: «**وداعًا**».

قلت بتمهّل وتردّد: «**مع السلامة**».

ومجدّدًا لم يغادر، ومجدّدًا طأطأ رأسه أرضًا، ومن ثمّ رفع ناظريه إليّ ونظر في عينيّ.

قال: «**أواثقة أنّك لا تريدين شيئًا؟**».

قلت: «**عساك أنت تريد شيئًا**».

قال: «**لا**».

قلت: «**كأنّ في وجهك كلامًا**».

قال: «**لا، لا أريد أن أقول شيئًا، في أمان الله**».

هذه المرّة لم يقف، وغادر بسرعة. لم أحتمل، رافقته إلى قرب باب الفناء الداخليّ للمنزل، ولكنّه لم يلتفت وراءه. وما إن صفق الباب حتّى أحسست بضعف في رجليّ. جلست في مكاني، واستسلمت للبكاء، وأيّ بكاء!!...

خرجت السيّدة «**عباديان**» مذعورةً مضطربةً. قالت: «**ما الخبر؟ لِمَ تبكين؟**».

قلت: «**لن يعود ثانيةً**».

قالت بتعجّب: «**من الذي لن يعود؟**».

قلت: «**عبّاس**».

قالت: «**لا تقولي هذا، لا قدّر الله**».

رحت أجهش أكثر فأكثر، وقلت: «**والله، لن يعود ثانيةً**».

قالت: «**لِمَ تتفوّهين بهذه الكلمات يا زهراء؟**».

أخذت بيدي، رفعتني، وأدخلتني إلى البيت. قالت: «**لعلّك افتقدته في هذه الأيّام التي لم يأتِ فيها، والآن قد أتى وغادر بهذه السرعة، ازداد افتقادك له أكثر**».

قلت: «**لا، ليس هذا ما يشغل بالي، أنت لا تدرين كيف ودّعني**».

وقصصت لها ما جرى. حاولت في البداية أن تسلّيني. ولمّا رأت أنّني لم أهدأ، راحت تبكي هي الأخرى.

في اليوم الذي ابتدأت فيه عمليات بدر، قرأت في الليل والنسوة اللواتي بقين دعاء التوسّل. وخلافًا للعمليّات الأخرى، كلّما حاولت أن أكون هادئةً لم أستطع. وقد بدأ صبري ينفد أكثر فأكثر، ومن بعد ظهر يوم الخميس الواقع في 23 من شهر إسفند، قرّر داود المضيّ في البكاء دون أن يكون به شيء، وواصل البكاء إلى أن علت حرارته، وما شابه ذلك من أمور.

أحيانًا، في حالات الفرح، يشعر المرء أنّ نفسه لا تسعه، لكن في تلك اللحظات كنت أشعر أنّي سأخرج من جلدي، من شدّة الضيق والحيرة، وأصرخ من أعماق قلبي. وددت أن أخرج من المنزل، وأهيم في الصحاري والجبال. كان قلبي يحدّثني أنّ خطبًا ما قد حصل. ما كنت أودّ الاستماع إلى حديث القلب. قضيت ليلة الجمعة أئنّ و«**داود**»، فقد ارتفعت حرارتي معه، ضججت معه... وأرقت معه...

صباح الجمعة، أتت السيّدة «**دستوارة**»، وسيّدتان أو ثلاثة، كنّ قد بقين في المنطقة، إلى منزلنا. ظننت أنّهنّ أتين ورائي للذهاب إلى صلاة الجمعة. فقد كنّ يأتين كلّ جمعة. قلت لهنّ:

«**انتظرنني، عدّة دقائق، وأكون جاهزة**».

قالت إحداهنّ: «**أنا لن أذهب**».

ما إن قالت هذه الكلمات حتّى انسلخ قلبي من مكانه.

قلت :«**لِمَ؟**» .

قالت: «**ما من سبب، فقط لن أذهب**».

قالت لي السيّدة «**دستوارة**»: «**استعدّي أنتِ للذهاب**».

دخلت إلى الغرفة الأخرى، وقبل أن أدخل شعرت بتغيّر تعاطيهنّ مع «**داود**». كنّ يظهرنّ له المحبّة بطريقة مختلفة. وفي الغرفة، رحت أبكي بكاءً شديدًا، لكن بهـدوء. سألت الله تعالى أن يكتب لعبّاس الشفاء إن كان جريحًا، وأن يلهمني الصبر إن كان قد استشهد.

المـرأة مهما كانـت، تبقى كيانًـا مليئًا بالمشاعـر والأحاسيس. حينها بدا لـي أنّ السيّدة «**دستوارة**» والسيـدات الأخريات يحاولن أن يخفيـن عنّي أمرًا، ولكنّ ألوان وجوهـنّ وتصرّفاتهنّ كانت تشير إلـى أنّ شيئًا ما قـد حصل. وعلى الرغم من أنّ أمـر شهادة عبّاس كان واضحًـا لي وضوح الشمس، فإنّني لم أكن أريد أن أصدّق. كنتُ كإنسانٍ متأمّلٍ يواجه الواقع، فلا أزال أودّ من كلّ قلبي أن أرى عبّاسًا مرةً أخرى.

قرابة الظهر، ارتأت النساء أن يخبرنني بالأمر شيئًا فشيئًا. سألت إحداهن:

«**ما الهديّة التي قدّمها لك عبّاس في بداية زواجكما؟**».

فأجبتها. ثمّ سألت سيّدة أخرى: «**هل تذكرين أيّ قصّـة عن جرح عبّاس؟**».

في تلـك اللّحظات، لم تكن من أسئلـة بالنسبة لي أسخف من هذه الأسئلـة. فقد كنت أنا من يطرح أمثال هذه الأمور أمام نساءٍ أخريات، لأشير لهنّ بـأنّ أزواجهن قد استشهدوا. لم يكن هناك من داعٍ ليمثّلن هذه المسرحيّة أمامي. جاريتهنّ وأجبتهنّ، مدركةً سرّ كلّ هذه الأسئلة.

كنت قد صلّيت صلاة الظهر، عندما جاء أحد الرجال فقلت له:

«**أصدقني القول، ماذا حدث لعبّاس؟**».

قال: «**جُرِح**». قلت: «أين هو الآن؟».

قال: «**في مستشفى الأهواز**».

ذهبت وجلبت «**داود**» لأذهب معه إلى الأهواز، فقال: «لا توجد سيّارة الآن».

قلت: «**أعطني رقم هاتف المستشفى لأتّصل**».

قـال: «**الوقت وقت عمليّـات، وجرحى كثيرون يُنقلـون إليها، وفي حالة الطوارئ هذه، لا أحد يجيب على الهاتف**».

بعدهـا، لم ألحّ عليه، ربمـا لأنّني كنت خائفةً مـن أن يخبرني غير هذا الخبر. سلّيت نفسي أنّه جريح فقط. في هذه الأثناء، اتّصل أخي. قالت لـه بقيّة النسوة إنّني مريضـة. أرادوا أن يطلعوه على الأمر شيئًا فشيئًا. قلق كثيرًا، وبعدها اتصل وقلت له: «**أنا بخير**».

قال: «**إذًا ما الخبر؟**».

قلت: «**يقولون إنّ عبّاسًا قد جُرِح**».

لـم يكن بي حيل على الـكلام، أنهيت المكالمة، وتركـت السمّاعة.

وكانت السيّدة «**دستوارة**» قد خرجت لبضع دقائق ثمّ عادت، سألتها: «أين كنت؟».

أجابت: «**ذهبت قليلًا إلى مستشفى الشهيد كلانتري**».

كانت المستشفى على مقربة من المحلّة. سألتها بتعجّب: «**لماذا ذهبتِ إلى هناك؟**».

قالت: «**لقد جاء الأخ صادقي توًّا وقال إنّهم نقلوا الحاجّ عبّاسًا إلى طهران**».

قلت فورًا: «**أين ذهب هو؟**».

قالت: «**ذهب إلى طهران**».

قلت باعتراض وانزعاج: «**على الأقلّ كنت أخبريني؛ لأذهب معه**».

قالت: «**غير ممكن، فقد كان على عجلة من أمره، ولا يمكنه الانتظار**».

بعدها علمت أنّ «**قاسم صادقي**» قد أتى إلى هنا وأحضر معه عبّاسًا، ونقله بعدها فورًا إلى طهران كي لا ينتشر الخبر أو يصل شيء إلى مسمعي. إلى ذلك الحين أيضًا لم أكن أودّ أن أصدّق شيئًا. وما إن وصل السيّد «**صالحي**»، حتّى حملت «**داود**» وقلت له: «**خذني إلى طهران**».

قال: «**إخوتك قادمون، وهم الآن في الطريق**».

قلت: «**لا طاقة لي على الانتظار، علينا أن نذهب الآن**».

قال: «**لا يصحّ أن يأتوا فلا يجدونك**».

قلت: «**لا مشكلة في ذلك، قل لهم ذهبت إلى طهران**».

فـي تلك اللّحظات، كان التفكيـر في عبّاس هو شغلي الشاغل. كنت أريـد الوصول إليـه بأيّ وسيلـة كانت. لم تستطـع السيّدة «**دستوارة**» والنساء الأخريـات منعي. ولم يكن أمام السيّد «**صـالحي**» إلاّ القبول. ركبنا السيّارة وانطلقنا.

في الطريق، ارتفعت حرارة داود بشدّة. اشترى له السيد «**صالحي**» دواءً لتخفيض الحرارة. أعطيته عدّة قطرات، قال السيّد «**صـالحي**»: «**سيّدتي، فلنبقَ هنا ريثما تتحسّن حاله، ومن ثمّ نذهب**».

قلت: «**لا، فلنذهب الآن**».

قال: «**انتبهي، حرارة الطفل مرتفعة**».

قلت: «**إن شاء الله يتحسّن**».

اقتربنـا من مدينة قم، فتوقّـف للصلاة. توضّـأت بسرعة وذهبت إلى مصلّى النساء. وما إن أنهيت صلاتي حتّى أتاني السيّد «**صـالحي**» بصينيّـة، عليها طعـام. أردت أن أردّها فلم أستطـع. وبعد عدّة دقائق أتى وأخذ الصينيّة،من دون أن يكون قد نقص منها شيء.

ومـا إن وصلنـا إلى قم، حتّى ذهبنـا إلى بيت السيّـدة «**بديهيان**»، زوجة الشهيد «**همّت**»، وقد كانت كلّ من زوجة الشهيد «**باكري**»، وزوجة الشهيـد «**زيـن الديني**» هنـاك. مكثت هنـاك قرابة النصـف ساعة. تحدّثنـا قليلًا. لم أستطع المكوث هناك أكثر من ذلك على الرغم من إصرارهنّ عليّ بالبقاء. بعد ذلك انطلقنا نحو طهران.

وصلنـا في منتصف الليل. قـال السيد صالحي: «**أآخـذك إلى بيت أخت الحاجّ؟**».

قلت: «**لا، فلنذهب إلى المستشفى**».

قال: «**ولكنّنا في منتصف الليل!**».

قلت: «**نعم، وما الضير في ذلك؟**».

قال: «**المرضى نائمون، قد نزعجهم!**».

قلت: «**لا شأن لنا بالمرضى، نذهب إلى عند الحاجّ**».

كان يعلـم أنّني لـن أتراجع، ضغط علـى الدوّاسـة وانطلق. بعدها بقليل، وصلنا إلى مستشفى «**نجميّة**». قال:

«**انتظري قليلًا في السيّارة ريثما أعود**».

ذهب، ثمّ عاد برفقة اثنيـن أو ثلاث من الممرّضات، وكأنّه أحضر قوّات مساعدة له.

قلـنَ: «**لقـد أدخلنـا الحاجّ إلـى غرفة العنايـة الفائقة، ولا يُسـمح لأحد بالدخول عليه**».

قلت: «**حتّى زوجته؟!**» قالوا: «**حتّى زوجته**».

قلت: «**على الأقلّ دعوني أره من خلف الزجاج**».

قالوا: «**لا مجال لذلك**».

كلّمـا حاولت هذه المرّة لم أستطع الوقوف بوجههم. كنت مضطرّة إلـى التراجـع، وإلى الذهاب إلـى بيت عمّة «**داود**» فـي منتصف الليل. وهنـاك بقيت مستيقظةً حتى الصباح. كلّمـا كادت عيني تسهو، كانت

تنتابني حالة كحالة فقدان الوعي، فأفقد السيطرة على أعصابي.

ليتهم أخبروني وأنا في «**دزفول**» أنّ عبّاسًا قد استُشهد. عندها، لم تكن السيّدة «**عباديان**» ستضطرّ للمجيء خلفي في الصباح الباكر إلى بيت أخت عبّاس، مسلّمة عليَّ وباكية، ضاربة كفًّا على أخرى، وتقول:

«**لِمَ أنا التي يجب عليها دومًا أن تعلن خبر الشهادة؟**».

هنـاك حلّـت عقد الأيّـام القليلـة التي خلـت. احتضنتنـي السيّدة «**عباديان**»، وبكينا نحن الاثنتان، إلى أن سكتت محاولةً تهدئتي.

قلت: «**لي طلب، فلا تقولوا لا**».

قالت: «**ما هو؟**»

قلت: «**أريد أن أرى الجثّة**».

قالت: «**لا يمكن**».

قلت: «**ولِمَ هذا أيضًا؟**».

قالـت: «**إنّهـا العمليّـات، لا نريد لخبر استشـهاده أن ينتشـر، فإذا عرف عناصر اللواء أنّ قائدهم قد استشهد، فقد تضعف معنويّاتهم**».

قلت: «**لكن أنا لن أقول لأحد**».

بعدهـا، علمت أنّ هذه كانت مجرّد حجّة، ذلـك أنّ قناة الـ(بي بي سي)، كانت قد بثّت الخبر منذ الليلة الأولى. على أيّ حال، توجّهنا نحو مستشفى «**نجميّة**».

كان جثمـان عبّاس في برّاد المستشفى. كنت قد سمعت أنّ الإنسان عندما يذهب لرؤيـة جثّة عزيز ما، لا يعود يشعر بأطرافه. وقد خبُرت

هـذا المعنى عندمـا وصلت إلى بوّابة المستشفى؛ لـم أعد أشعر بيديّ ولا رجلـيّ. تأبّطت ذراعـي السيّدة «**عباديان**»، ودخلنـا إلى برّاد حفظ الموتى. هناك فُتح أحد الأدراج. أغمضت عينيّ، لم أجرؤ على فتحهما. تفاجأ السيّد «**صالحي**»، وقال باضطراب:

«**أوَلم تقولي إنّك تريدين رؤية الجثمان. حسنٌ، أنظري الآن**».

كأنّه كان يريد أن ينهي القضيّة فورًا، ويخرج من المستشفى حتى لا يعلم أحد بالأمر. وبعينـيّ المغمضتين وضعت رأسي على صدره. كنت قـد أخذت عهدًا على نفسي منذ الصبـاح، أن لا أبكي أمام أحد، ولكن هل يمكن ذلك؟ تذكّرت الأوقات التي كان يقوم فيها احترامًا لي، وقلت بهدوء:

«**لِمَ لم تعد تقف أيّها الحبيب عبّاس؟**».

مـرّت خمس أو ستّ دقائق، أو ربّما أكثر. رفعت رأسي، ألقيت نظرةً على الجثمان وخرجت.

وتذكرت كلامه عن السيّـدة الزهراء عليها السلام الذي كان يكرّره دائمًا ويقول:

«**كثيـر من التيسـيرات التي شـهدتها في حياتـي، كانت من خلال الاسم المقدّس لهذه السيّدة العظيمة**».

لقد كانت الشهادة بالنسبة إلى عبّاس أيضًا تيسيرًا. وقد صادف أن كان نـداء عمليّات بدر «**يا فاطمة الزهـراء** عليها السلام». وقد أوصاني أيضًا بأن يُدفن في «**جنّة الزهراء**». وهذا ما فعلناه.

عندما كانوا ينزلون عبّاسًا إلى مثواه السماويّ والخالد، وفيما كانوا يهيلون التراب على رصائف القبر، وفي ضيق تلك اللّحظات، كنت أفكّر بأنّ عبّاسًا قد انتهى إلى الأبد، وأنّ حياتي قد انتهت معه. كنت أفكّر أنّه يجب عليّ أن أهيم على وجهي، أن أبكي وأبكي حتّى أفارق الدنيا. ولكن شيئًـا من ذلك لم يحصل، وها أنا ذا حية أرزق. لقد كنت مشتبهةً، لم يفنَ عبّاس، وهـو لا يزال حاضرًا، يمدّني بالقوّة في كثيرٍ من الأماكن، ويأخذ بيدي.

□□□

الفصل الثاني

رجل بالكوفية البيضاء

خواطر من حياة الشهيد عبّاس كريمي

حادثة في المدرسة

مـا إن وقع نظره عليه، حتّى سرت محبّته في قلبه. يحيى فتًى أطول منـه بقليل، وكان يفصل بينهمـا صفّ واحد مـن التلاميذ. كان مدير المدرسـة يصول ويجـول أمام التلاميـذ، متوعّدًا إيّاهـم بإيماءة من رأسـه. عندها، تذكّـر عبّاس أنّ أظافره طويلـة. ولكن عندما نظر إلى معطف يحيى البالي، رأى أنّه لم يضع الياقة البيضاء.

جرت العادة في المدرسة أن تبدأ صفوف المرحلة الأولى بالانطلاق؛ أمـا صفوف المرحلة الخامسـة فكانت آخر من يبـدأ بالانطلاق. كان ناظـر المدرسة يحمـل بيده عصًا يضـرب بها على كفّ يـده، وأحيانًا يصفع عنق أحدهم مشيرًا إليه أن ينتظره أمام مكتبه.

فهـم عبّاس من خلال هـذه الأوضاع، أنّ ناظـر المدرسة لن يغضّ الطرف عن أظافره الطويلة:

«**لم تخالف النظام يومًا يا كريمي، اذهب وقف أمام المكتب**». لكنّ عبّاسًا كان مرتاح البال.

كان المكان أمام المكتب مزدحمًا. وتلامذة المراحل الأولى يصبّون

الدمع كغيوم الربيع. ما إن رأى عبّاس يحيى حتّى ذهب إليه ووجد مكانًا لـه إلى جانبـه. ارتسمت على وجه يحيى ابتسامـة. أراه عبّاس أظافره الطويلة ورفع كتفيه كنايةً عن عدم الاكتراث.

تقـدّم ناظر المدرسة نحوهـم من ناحية القاعـة مقطّبًا حاجبيه. مـلأت أصوات بكاء تلامذة المراحل الأولى الأرجاء من شدّة الخوف. وبعـد أن وبّخهـم ناظر المدرسـة وعنّفهم بشـدّة، قال: «**اذهبـوا إلى صـفوفكم، فـي الغـد، لا أريـد أن أرى أحدًا من دون ياقـة**». بعد ذلك كُلّف حارس المدرسة بإرشادهـم إلى صفوفهم؛ لشـدة اضطرابهم وخوفهم.

«**برأيك كم ضربة سيضربنا بعصاه؟**»

أزاح عبّاس نظره عن التلامذة، وقال مجيبًا على سؤال يحيى:

«**سيضرب ويضرب حتّى تحمرّ كفوفنا**».

شرع الناظـر من الصفّ الأوّل، وكان كلّما وصـل إلى تلميذ، يسأله سؤالًا ثمّ يقول له:

«**ارفع يديك، ارفعهما أكثر**».

كانت أصـوات التأوّهات تملأ القاعة مع صـوت المسطرة الضاربة على الأكفّ. نظر عبّاس إلى يحيى. كان وجهه هادئًا. وكأنّه أتى ليستلم مكافأة التلميذ الممتاز في المدرسة:

«**ألا تخاف؟**».

عـادت البسمة لترتسم على شفتي يحيى. ظنّ عبّاس أنّ قلبه سيرقّ

له أكثر من الجميع. فالمظلوميّة والقهر البادیان على وجهه ملأت قلبه غمًّا.

«**ليس هذا من صفاتك يا كريمي. لم يعجبني هذا، أهو رفشٌ أم ظفر؟ ارفع يدك عاليًا**».

رفع عبّاس إحدى يديه. رفع الناظر العصا، لكن، فجأةً وقع نظره على يحيى:

«**أنت تلميذ جديد في هذه المدرسة، أليس صحيحًا؟**».

أجاب يحيى بسرعة البرق: «**نعم**». كانت مخالفة يحيى واضحة، ولا تحتاج إلى انتحال الأعذار.

توجّه الناظر إلى يحيى وقال:

«**والآن، مدّ يدك حتى لا تنسى الانضباط بعدها**».

لم يدع عبّاس الناظر ليكمل كلامه؛ ووضع كفّه بسرعة تحت ضربة المسطرة:

«**سيّدي، أوَ نسيتني؟ كان الدور دوري**».

التفت الناظر إليه بتجهّم ثمّ قال:

«**ما هذه الألاعيب؟ وهل نحن في صفّ شراء الخُبز**[1]**؟**».

عندما مدّ يحيى كلتا يديه أنزل الناظر المسطرة:

«**سيّدي، أيُمكن أن تضربني بدلًا عن هذا الفتى؟**».

(1) كان الناس يقفون في صفوف طويلة للحصول على الخبز من المخابز والأفران، لأسباب منها الوضع المعيشي آنذاك، وطبيعة الخبز المصنوع الذي لا يدوم أكثر من يوم.. ولا زال هذا النوع من الخبز موجودًا حتى يومنا هذا.

حـدّق النـاظـر؛ رأى عبّاس أنّ علامات الرأفـة قد بدت على وجهه، كمـا في أيّـام منتصف العام. وحيـن رأى ابتسامة وجهه قـال: «**تأكّد، ستكون هذه المرّة الأخيرة**».

عفـا النـاظر عـن البقيّـة أيضًـا، وراح يضرب المسطـرة على كفّ راحته، وغادر بهدوء.

مؤاساةً ليحيى

نظـر عبّاس إلى ساعة حائـط المسجد. كان عقـرب الثواني يدور مسرعًا لتتحـرّك عقارب الساعة إلى الأمام. تقـدّم حسين من عبّاس وقال: «**يعني أنّه لن يأتي؟**».

عـاود عبّاس النظر بطرف عينه إلى الساعة: «**لا زال الوقت مبكرًا حتّى موعد الأذان**».

بعدها ذهب باتّجاه صنـدوق السجدات. وبينما هو يضع السجدات على الأرض بانتظام، كان جلّ تفكيره بيحيى الذي أخلف.

سأل حسين: «**أَلم يعدنا بالأمس أنّه سيأتي كلّ ليلة إلى المسجد؟**

تمتم عبّاس: «بلى!».

دخـل خادم المسجد، فابتسم لرؤيـة الشبّان قائلًا: «**دور من منكم اليوم؟**».

أشار حسين إلى عبّاس وقال: «**إنّ صوته في الأصل خُلق للأذان**».

فتح خادم المسجد قفل الخزانة وقال: «**بارك الله فيك**».

وهذه المرّة كانـت نظرات حسين هي التي تلاحق عقارب الثواني. وبينما كان خادم المسجد يهيّئ الميكرفون. سأل حسين:

«**أتريد أن نذهب وراءه؟**».

نهض عبّاس وذهب لوضع السجدات الإضافيّة في مكانها. كان يودّ قبـول اقتراح حسين. ذهب حسيـن باتّجاه الميكرفون، وضغط على زرّ التشغيل:

«**واحد، اثنان، ثلاثة... تجربة**».

فجأةً، خطرت على بال عبّاس فكرة. ذهب مسرعًا باتّجاه الميكرفون. تراجع حسين إلى الخلف وراح ينظر إلى عبّاس متعجّبًا.

«**انتباه انتباه؛ إنّه وقت صلاة المغرب والعشاء، فليأت السيّد يحيى صولتي إلى المسجد**».

ضحك حسين. لم يكن يفهم ما قام به عبّاس. سأل مرتضى الذي دخل في التوّ:

«**ماذا يجري هنا؟**».

غيّر حسين ملامح وجهه وقال: «**قرّرنا أن نفتعل مشكلة**».

وصل خادم المسجد، منحني الظهر، واضعًا يده على ظهره:

«**سمعت أصواتًا من الميكرفون وأنا في الزقاق، ما الأمر؟**».

سرعان ما أجابه حسين وقال: «**لقد تعطّل الميكرفون، فأصلحه عبّاس بسرعة البرق**».

دخل المصلّون واحدًا تلو الآخر. لم يمضِ وقت طويل حتى امتلأت الصفوف للصلاة. نظر عبّاس مرّة أخيرة إلى باب المسجد. فرك حسين كلتا يديه الواحدة بالأخرى، ونظر نظرة شقاوة. ففهم عبّاس قصده. كانت تلك إشارةً بينهما، أي «**إنّ الشخص لا ينفع للصداقة**».

بعد الصلاة، اتّخذ حسين ومرتضى موقف المدافع عن الحقّ؛ قال حسين: «**أفهمت الآن، أنّه لا ينبغي الوثوق بكلامه؟**».

لـم يكن عبّاس ليتصـوّر أنّ يحيى إنسـانٌ كاذبٌ مخلٌّ بالوعد. بعد ذهاب حسين ومرتضى، انصرف هو أيضًا إلى منزله. في الطريق كان يفكّر في نفسه معاتبًا يحيى:

«**ينبغي أن أقول له إنّه إنسان مخلّ بالوعد**».

مع هذه الأفكار رجع من منتصف الطريق. طرق باب منزل يحيى، لكنّـه عاد وندم. تراجع خطوات إلى الخلـف، فجاءت خطوته متأخّرة. فتحت امرأة عجوز الباب وسألته:

«**ماذا تريد؟**».

أجابها عبّاس بارتباك: «**أريد يحيى**».

فتحـت العجوز الطريـق أمام عبّاس وقالت بحـزن: «**أدخل، فحال يحيى غير جيّدة**».

دخل عبّاس، وأشارت العجوز إلى الغرفة الوحيدة في الفناء وقالت:

« **أدخـل يـا بنـيّ، فليس لدينا مصباح جيّد فـي منزلنا، سـأذهب وأحضر فانوسًا**».

دخـل عبّاس الغرفة. كانت باردة، وقد فُرشـت أرضها ببساط بالٍ. وعلى البساط، كان يحيى نائمًا، يتصبّب عرقًا ويئنّ.

لـم يستطع عبّاس حبـس دموعه. دخلت العجـوز الغرفة بمصباح، خنقتها العبرة وقالت:

«**ارتفعت حرارته منذ فترة ما بعد الظهر، لا أعلم ماذا أفعل؟**».

سألها عبّاس: «**أين أبوه؟**».

تأوّهت العجوز وقالت: «**ألا تعلم أنّ حادث سير وقع لوالديه فتوفّيا في الأثر؟ يحيى ابن أخي. مسكين، ليس له في هذه الدنيا أحد غيري**».

كانت المرأة العجوز تتكلّم، لكنّ عبّاسا لم يكن يسمع شيئًا من شدّة الندم.

قارب الوقت منتصف الليل، وإذ بيحيى يفتح عينيه. وحينما لاح له وجه عبّاس، ارتسمت على شفتيه الذابلتين ابتسامة. كان صوته ضعيفًا، يكاد لا يُسمع: «**سامحني، لقد أخلفت بوعدي**».

ومن جديد اختنق عبّاس بعبرته، فراحت كتفاه تهتزّان من شدّة البكاء:

«**بل أنت سامحني، لقد أسرعت في الحكم عليك**».

ومن ثمّ أخذ رأسه المحموم وضمّه إلى صدره. تبسّمت المرأة العجوز، أصلحت مقنعها وقالت: الحمد لله، لقد تحسّنت حالته».

تلك الليلة، عاد عبّاس إلى البيت متأخّرًا، وأخبر أهله بما جرى. عندما أوى الجميع إلى فراشهم، قام على مهل، جمع فراشه مؤاساةً ليحيى، ونام على الأرض الباردة. على امتداد تلك السنوات ولياليها، لم يذكر أحدهم أنّه رأى عبّاسا نائمًا على فراش.

جنديّ الثورة

وضع الرقيب يده على خاصرته، وأمامه كرشه الضخم قائلًا:

« **أنتم ترتدون لباس الجنديّة؛ على الجنديّ أن يكون وفيًّا للشاه والحكومة**».

تفتّق «**هوشنك**» شقاوةً كعادته وقال: »أيّها العريف، الهواء بارد».

وقـف الرقيب على رأس قدميه القصيرتين ونظر إلى صفّ السريّة وقال: «**ماذا يجري هناك في الخلف؟**»

عندما لم يسمع جوابًا، ضرب بعصاه الجلديّة على قدمه وتابع: «... **يظنّ المخلّون بالأمن أنّهم بإحراق دولابين سيخيفون الشاه. الشاه ظلّ الله، أوَ يمكن أن لا نحترمه؟!**».

تلمّس عبّاس بأصابعه غطاء سلاحه البارد. همس «**هوشنك**»:

«**أتريدني أن أتثاءب بطريقة، حتّى أشتّت أفكار الرقيب؟**».

استـدار «**مهـرداد**» الذي كان واقفًا وجامدًا فـي مكانه حول نفسه، وضربه بكفّـه على بطنه. كانت تلك خاتمة مشاغبات «**هوشـنك**»، بعد ذلـك، عاد الرقيـب إلى الكلام. وفي النهايـة، استدعى مسؤول جدول الحراسة.

«**تفرّقوا**»؛ [تركهم وشأنهم].

استـدار الرقيب وابتعد؛ زفر «**هوشـنك**» الهواء بيديه، وشرَقَ أنفه: «**يظنّ هذا الرجيل أنّ مدحه للشاه يدرّ عطفنا عليه**».

نظـر عبّاسـ إلى علـي وعقد «**مهـرداد**» حاجبيـه. وعندمـا رآهما

ينظران إليه شزرًا قال: «**فليدخلنا أحد في زمرة البشر**».

اقترب عبّاس منه وهمس في أذنه: «**هناك ازدحام شديد في زمرة البشر، والآن، استمرّ في مزاحك حتّى ينكشف أمرنا بفعل يديك**».

عاد «**هوشنك**» ونفخ في يديه من جديد، وصار أنفه تمامًا كالشمندر الأحمر. اجتمع عدد من الجنود حول عريف السريّة، واعترضوا على مكان حراستهم. تقدّم عليّ باتّجاه عبّاس وقال:

« **والآن، ماذا علينا أن نفعل؟ لقد ضيّقوا علينا حتّى أنّهم لا يسمحوا لنا بالذهاب إلى باب الثكنة... ؟**».

نظر عبّاس إلى أسراب الغربان التي اتّخذت لها أعشاشًا على أشجار الثكنة:

«**لقد حبسونا في الثكنة حتّى لا نعرف ما الذي يجري في الخارج. وفي هذه الحال، ستقع الورقة الرابحة في أيديهم. ينبغي أن نجلب البيانات إلى الثكنة بأيّ طريقة**».

استند «**مهرداد**» إلى الحائط وقال: «**كيف؟**».

حدّق عبّاس من جديد في الغربان وتمتم: «**لا سبيل أمامنا سوى الالتجاء إلى الملازم خلج. فإن أوصل رسالتي إلى الشباب في مسجد قمر بني هاشم عليه السلام فنكون قد قطعنا نصف الشوط**».

عقد علي حاجبيه وقال: «**ألا تظنّ أنّه من المبكر الوثوق به؟**»

«**أوَلا يمكن لجنديّ الجيش أن يكون ثوريًّا؟ إنّها ليست المرّة الأولى التي نثق به**».

قـال «**هوشـنك**» وقـد أراد أن يكون جدّيًّا فـي تعامله: «**معـذرةً أيّها السادة، قولوا ما هي النتيجة**».

ضحك عبّاس وقال: «**أنا أحتاجك كثيرًا.**»

□□□

«**أيّها الجنود، انتباه!**».

توجّهت الأعناق نحو قائـد الثكنة الذي كان يتقدّم كعصًا متحرّكة. حبـس الجميع أنفاسهـم. ذهب قائد الثكنة إلى مكانـه الخاصّ، وأدّى التحيّة للجنود.

تقـدّم «**هوشـنك**» خطـوة وقـال: «**بـأيّ جـرم علـيّ أن أحمـل هـذه الجعبة**».

قال أحدهم من مقدّمة الصفّ: «**صه!**».

كان قائـد الثكنة يتكلّم بهـدوء وتأنٍّ. لكن عندما علت أصوات نعيق الغربـان، رفع صوته عاليًا: «**... أيّها الضبّاط، أيّهـا الرتباء، والجنود الأعـزّاء، لا ترحمـوا هـؤلاء الذيـن يعملون علـى إسـقاط الحكومة، هؤلاء أجانب!**».

كانـت كلمـات قائد الثكنة تعنـي أن استعدّوا. بعـد مراسم «**تكريم العلـم**»[1]، استدار الرقيب من جديد ووقف مقابل جنود السريّة. كانت هيئته مختلفة عن الأيّام السابقة. فقد عقد حزامه تحت بطنه الناتئة، ووضع رشّاشه بين بطنه والحزام:

(1) أو نظام الرصّ الصباحيّ.

«بناءً على أوامر القيادة، ينبغي أن ننزل إلى الشارع لمواجهة الخونة. على الجميع أن يكونوا مستعدّين لهذه المواجهة».

خرج عبّاس من الصفّ فورًا. تبسّم الرقيب. بعد علي، جاء «**هوشنك**». نظر إليه الرقيب بتعجّب وقال: «**لماذا تحمل الجعبة؟ من الذي سمح لك؟**».

وضع «**هوشنك**» كسرة الخبز التي كان يحملها في فمه وقال: «**أعاني من قرحة في المعدة، عليّ دائمًا أن آكل، حتّى لا أتأذّى**».

وجّه الرقيب عصاه إلى صفّ السريّة وقال: «**اذهب واجلس**».

قضم «**هوشنك**» قطعة أخرى من الخبز، وكأنّه لم يسمع أوامر الرقيب.

«**قلت، تعالَ ولازم مكانك، أساسًا، أنت معفى!**».

ابتلع «**هوشنك**» قطعة الخبز وقال: «**لِمَ لا أذهب أنا أيضًا. أنا أودّ أن أقتل**».

ضحك بعض الزملاء. توجّه الرقيب نحوه وأمسك يده بقوّة. أفلت «**هوشنك**» يده وقال:

«**سأذهب الآن إلى قائد الثكنة وأقول له: لماذا لا ينزلون للشارع الجنديّ الذي جُرحت معدته في سبيل هذا الوطن للدفاع عن الشاه؟ سأقول له إنّك ثوريّ**».

لم يدرِ الرقيب كيف سيرضيه وقال: «**كلّ هؤلاء الأصحّاء قابعون في بيوتهم، أنت الذي تعاني من جرح في المعدة تريد أن تنزل إلى الشوارع؟**».

قضم «**هوشنك**» قطعة أخرى من الخبز كالطفل المدلّل، وقال: «أريد أن أقتل. فالجنود غير المستعدّين للمشاركة، يُنظر إليهم باحتقار. من بين سبعين شخصًا، ثلاثة عشر فقط تطوّعوا للمشاركة».

فـرّج الرقيـب ساقيه القصيرتيـن، وصاح: «**ثلاثة عشـر شخصًـا فقط؟ لا بدّ أنّ البقيّة يفضّلون السجن وزيادة مدّة الخدمة**».

□□□

منـذ اللحظة التي انطلقوا فيهـا، رأى عبّاس، جـوادًا وقاسمًا ولوّح لهمـا بيده. كانـت الشاحنة العسكريّـة تسير بهدوء، لتبـثّ الرعب في نفوس الناس أكثر.

ضغط عبّاس على يد «**هوشنك**»، وقال: «**لن أنسى تضحيتك، لكن ليكُن في علمك، أنّ الأمور سـتزداد صـعوبةً من الآن فصاعدًا. حمدًا لله أن أوصل الملازم خلج رسالتي**».

سأل «**هوشنك**»: «**كيف لك أن تعلم، فأنت لم تخرج من الثكنة؟**».

أشار عبّاس إلى درّاجة ناريّة كانت تتقدّم نحوهما من بعيد وتبسّم: «**هاك شاهد الغيب**».

توقّفت الشاحنة العسكريّة في أكثر الشوارع ازدحامًا. كانت أصوات المتظاهرين تعلو شيئًا فشيئًا: «**قولوا: الموت للشاه**».

كمـا كانـت أرضـ الشـارع مـلأى بالزجـاج المحطّـم والإطارات المشتعلـة. انعطف راكب الدرّاجة داخل أحـد الأزقّة. نظر عبّاس إليه وهـو يترجّـل. كان الرقيب يروح ويجـيء على امتداد الشـارع ولا يرفع

عينيــه عن المتظاهرين لحظةً. وجّه أحــد الضبّاط مكبّر الصوت نحو المتظاهرين وصاح:

«**تفرّقوا**».

ومــع أوّل حجــر رمي نحوهم قــال عبّاس: «**إنّه الوقــت**». كان جاثيًا على ركبته، نهض وركض باتّجاه الزقاق. صرخ «**هوشنك**»:

«**لقد هرب**».

وراح يلحق به. أزاح الرقيب نظره عن المظاهرات وقال:

«**اذهبوا وراءه**».

ركض خلفه عدد الجنود، قطع عليّ الطريق عليهم:

«**راقبوا أنتم الناس، سنمسك به نحن الإثنان**».

عندمــا رأى «**هوشــنك**» الشخصين اللذين كانــا واقفين إلى جانب عبّاســ، جلس أرضًــا من دون أن ينبســ ببنت شفة. أفــرغ قاسم فورًا الخبــز اليابس من داخل حقيبة الظهر، ووضع جواد رزمة مكانه وقال: «**قُضي الأمر**».

قام «**هوشنك**» من مكانه وجرّد عبّاسا من سلاحه قائلًا:

«**تقدّم، أي: أنت معتقل**».

التحق علــيّ بهما وراح الثلاثة يضحكون. حيــن رأى الرقيب عبّاس نظر إليه بغضب وقال:

«**أوَ تهرب؟ سآمر بسلخ فروة رأسك**».

تظاهر عبّاس بالمظلوميّة وقال:

«أَوَلـم تـرَ كيف هجموا علينا؟ لقد خفـت. كان ذلك عن غير وعي منّي».

أخذ «**هوشنك**» الأقسام ووجّه سلاحه نحو عبّاس:

«هل أنفّذ حكم الإعدام فيه أيّها الرئيس؟».

زمجر الرقيب: «**زجّوا به في السجن، سنهتمّ به جيدًا**[1]!».

فـي تلك الليلة أودع عبّاس السجن؛ لكنّه كان سعيدًا لأنّه كان يعلم أنّ ثكنـة عبّاس آباد ستمتلئ غدًا بالمنشـورات المفعمة برائحة الثورة العطرة.

(1) كناية عن إنزال العقوبات به.

فتحٌ من دون قتال

عندما سمع عثمان اسم الرجل الذي كان واقفًا أمامه، انخطف لون وجهه. قبل ذلك كان يخاله طويلًا وضخم البنية. قال عثمان في نفسه:

«ماذا رأى أعداء الثورة فيه؟ حتّى خصّصوا 200 ألف دينارٍ، جائزةً لمن يأتي به حيًّا أو ميتًا».

تقـدّم عبّاس نحوه وحدّق به. كانت قد مـرّت أيّام عدّة، على الليلة التي عُثر فيها على عثمان، جريحًا في الصحارى المحيطة بالمدينة.

عندما سمـع عبّاس أنّه من أهالي قرية «**دزلـي**»[1]، فرح كثيرًا. كان يأمل أن يكون لدى عثمان كلام جدير بالاستماع:

«حدّثني يا عثمان، أنا أسمعك.»

ألقى عثمان نظرةً على جرح عضده المضمّد، وقال:

«أنا مزارع، وإلى الآن لم أقتل أحدًا. عندما تعيش في دزلي، عليك أن تختـار واحـدة مـن اثنتيـن، إمّا أن تلتحـق بالحـزب الديمقراطيّ وإمّا أن تموت. قبل عدّة أيّام، ارتفعت حرارة ولدي، قيل: إنّه مصـاب بالحصبة. أردت المجيء به إلى المدينة للمعالجة، لم يسمحوا لي. مـن شـدّة غضـبي، ذهبـت ليلًا إلـى مخـازن ذخيرتهم؛ لأشـعل فيها

(1) إحـدى قـرى محافظة كردستـان شمال غرب إيـران، وغالبية سكانها من الكـرد المسلمين السنّـة. وقد ظهـرت في هذه المحافظـة أحزاب مناوئة للثـورة الإسلاميّـة بدعم وتحريض مـن المخابـرات الأجنبيّـة وخاصّـة البريطانيّـة والأمريكيّة، بهـدف إضعاف الثـورة وخلق مناطـق مضطربة على أطراف البـلاد.. ومن هذه الأحزاب: الكوملـة والحزب الديمقراطي الكردستاني.

النيران فرموني برصاصة. وها أنا الآن هارب كما تعلم، وزوجتي وطفلي أسيران في دزلي. تعالَ لنتعاون يا سيّد عبّاس، أنت تسلّمني زوجتي وابني سالمين، وأنا أدلّك على طريق دزلي».

غرق عبّاس في التفكير. فقد كان قد خطّط مرّات عدّة لدخول «**دزلي**»؛ لكنّه كان يتراجع خوفًا على أرواح قوّاته. حتّى أنّ عيونه[1] لم يستطيعوا العثور على طريق، يمكّن قوّاته من الهجوم على هذه القلعة المنيعة، بأقلّ خسائر ممكنة.

«**أعدك يا عثمان، إن استطعنا السيطرة على دزلي، فإنّا نضمن لك سلامة عائلتك، ويمكنك الذهاب إلى أيّ مكان تختاره بشرط عدم الخيانة**».

بعد أربعة ليالي، دخل مقرّ قيادة معلومات المنطقة رجلان ملثّمان. كان حسين يعرفهما وقد اخترقا جماعات الكوملة[2] والحزب الديمقراطيّ. وما إن وقعت عينا عبّاس عليهما، حتّى قال لهما بلا مقدّمة:

«**نريد الهجوم على دزلي**».

نظر الرجلان -وقد اتسعت حدقتا عيناهما- أحدهما إلى الآخر.

قال واحدٌ منهما: «**حذارِ أن تخطئ يا حاجّ عبّاس، فجبال «دزلي»** ملأى بالألغام شبرًا شبرًا».

(1) كانت هناك مجموعات من أهالي المنطقة تساعد عناصر الثورة بالسرّ وكانوا بمثابة عيون وجواسيس لصالح الثورة.

(2) حزب الكوملة: حزب يساري كردي.

حـدّق عبّاس في نقطة مجهولة، وقـال بهدوءٍ وتأنٍّ: «**ينبغي لدزلي أن تسقط. هذا ما يريده أبناء المنطقة**».

«**الحقّ معك. لكن أيّ طريق ستسلك؟**».

نظر عبّاس إليهما نظرات عزم وتصميم وقال: «**دعوا الطريق عليّ**».

اقتـرب أحـد الرجلين [الجاسوسين] وكان لا يـزال ملثّمًا، أمسك بعضد عبّاس وقال:

«**حاج عبّاس، كلّنا ثقة بك، لكن لا يمكن أن تنزل كتيبة من القوّات من السماء في دزلي، ولنفرض جدلًا أنّكم وصلتم. يوجد هناك آلاف الملاجـئ، التـي تمكّن أعداء الثورة من القتال فـي النهار والالتجاء إليها ليلًا، لا تخاطر يا حاجّ. سوف تُدفن قوّاتك تحت أكوام الحجارة المتساقطة من الجبال**».

لفّ عبّاس كوفيّته حول عنقه جيّدًا وقال: «**عليكم تنفيذ أوامري**».

ثـمّ اقترب مـن الرجل الـذي كان يتكلّـم وهمس في أذنـه كلمات. استدار حسين يريد الخروج. أشار عبّاس إليه بالبقاء.

قـال الرجل الملثّم: «**قد يكون هنـاك طريق آخر، لكـن لا تنسَ أنّ أعداء الثورة قد رصـدوا مكافـأةً لقتلك. عليك توخّي الحذر يا حاجّ. على كلّ حال إنّنا رهن أوامرك**».

بعـد ساعة، ذهـب هـؤلاء المُختَرَقُـون[1] المحلّيّون لينفّـذوا خطّة عبّاس.

□□□

(1) عناصر اخترقت حزب الكوملة والحزب الديمقراطي الكرديّين وعملت لصالح الثورة.

مــع غروب الشمســ، انطلقت القوّات في صفّيــن منتظمين. تراجع عثمان إلى الخلف ونظر إلى الصفّ الطويل. بدأت الوساوس الشيطانيّة تســرح في مخيّلتــه. وفي لحظة، التقت عيناه بعينــي عبّاس الحادّتين. قال في نفسه:

«**إنّه يساوي مئتي ألف دينار. إنّه مبلغ يمكّنني من العيش مرتاحًا إلى آخر العمر**».

توقّــف للحظة، ونظر إلى قمّة جبــل مليء بالصخور والأشواك. قال عبّاس:

«**المكان هنا، مليء بالصخور على امتداد البصر**».

لاحــظ عبّاس آثــار الوساوســ الشيطانيّة في وجه عثمــان؛ فالأيّام الصعبــة جعلت منه خبيرًا في كلّ المجالات. اقترب منه بهدوء، وتكلّم إليه بلطف:

«**اتفاقنا كان مبنيًّا على الصدق، أليس كذلك يا عثمان؟**».

ارتعــدت فرائصــ عثمان. فجــأةً تذكّر تلك الليلــة المريرة. فلو لم ينجده عبّاس، لكان الآن في بطون الضباع.

«**صحيح ما تقول أيّها القائد**».

وعاودا السير. ومن جديد، قلبت وساوس ال«200 **ألف**» دينارٍ أحوال عثمــان. جاء حسين إلى عبّاس وقال: «**لا ينبغــي أن نخاطر بحياة كلّ هؤلاء العناصر**».

وقــف عثمان؛ كانت ملامــح الخوف باديةً على وجهــه الذي يضيئه

نور القمر. وكأنّ عبّاس قد شعر بدبيب الشيطان في وجه عثمان. اتّجه نحـوه. لم تكـن قامته تصل إلى صدره، وفي لمـح البصر، أخذ بعنقه. خرجت كلمات غير مفهومة من حنجرة عثمان، وجحظت عيناه. أسرع حسين إليهما. كان عثمان ملقىً على الأرض كخروف مُعدّ للذبح. مسح عبّاس العرق عن جبهته وسأله بهدوء: «**الطريق من أين؟**».

تلاشـت فكرة الـ 200 ألف دينارًا مـن رأس عثمـان، وتناثرت في الهواء:

«**لم يبقَ شيء، ما هي إلّا ساعةً، ونصل**».

بعـد ساعة وطئـت رِجْل عثمـان أوّل صخرة في سفـح الجبل. نظر عبّاس إلى القمّة، وقال:

«**لا أرى طريقًا**».

رجع عثمان وحـدّق في عيني عبّاس. طمأنت هذه النظرات عبّاسا؛ لكنّـه إلـى الآن لم يكـن يصدّق أنّ هنـاك طريقًا إلى «**دزلـي**» من هذا الشقّ الضيّق.

قال عثمان: «**يُطلق على هذا الطريق اسم درب الـ«رئة»** أي طريق الدجاجـة المتعبـة. وكان قديمًا معبـرًا للقبائل والعشائـر». مع سماع صـوت انفجـار خفيف آتٍ مـن مسافة بعيـدة، استعدّت القـوّات. كان حسين قلقًا. قبّل عبّاس جبينه، وقال: «**لا داعي للقلق، هذه الأصـوات أفضل رسالة بالنسبة إليَّ**».

رفع حسين حاجبيه: «**أنا لا أفهم شيئًا**».

كان الطريـق الذي أشار إليه عثمان عجيبًـا. فهو لا يتّسع لأكثر من شخصـين واحد، وكانت القوّات تصعد بصعوبة. نظر حسين بتعجّب إلى المعبـر، الذي كان مغطّى بصفائح الصخور الكبيرة، وقال: «**إنّ الجنّ نفسه لن يعرف أنّ هذه الطريق توصل إلى «دزلي»**».

كان الطريق يزداد صعوبةً كلّما صعدوا باتّجاه القمّة. والآن، أصبح علـى طرفي الطريـق جرف فاغر فمـه. وينبغي لكلّ خطـوة أن تُدرس جيّدًا. كانت أوامر عبّاس تُنقل من واحد إلى آخر:

«**فقط لا تستعجلوا**».

وصلـوا إلى القمّة مع انبـلاج الفجر، ومن هناك هبطـوا إلى سفح الجبـل. كان أزيز الرصاص ودويّ انفجـارات القذائف المتتالية يشتدّ أكثر فأكثر. تنفّس عثمان الصعداء. أشار لعبّاس بإصبعه إلى «**دزلي**».

سـأل حسيـن بهدوء: «**تتساءل العناصـر عمّـا يجري هنـا؟ لِمَ لم تصدر الأوامر بالهجوم؟**».

حـدّق عبّاس في القريـة وابتسم. عـادت المجموعـة التي ذهبت لاستطلاع مواقع أعداء الثورة، بسرعة فائقة.

«**حـاج عبّاس، لماذا هؤلاء يقتتلون بعضـهم مع بعض، أظنّ أنّه لا داعي لأن نهجم عليهم**».

نظر حسين إلى عبّاس والسرور يملأ وجهه:

«**حـاج عبّاس! مـاذا فعلـت؟ أي إنّ أمنيتنـا قـد تحقّقـت بهـذه البساطة؟**».

قال عبّاس وهو يتوجّه نحو القوّات: «**إنّ الله معنا**».

كان أزيز الرصاص يأتي أيضًا من القريتين اللتين تقعا أسفل منهم. كانت «**دزلي**» مهيّأة للفتح من دون قتال.

وصل حسين الذي كان قد ذهب منذ ساعات عدّة، متعبًا ومنهكًا، وقال: «**عندما سمع أعداء الثورة أنّ كتيبةً من القوّات، نزلت عليهم في دزلي من السماء السابعة، فرّوا خائفين بكلّ اتّجاه. أظنّ أنّ عليهم بعد هذه الواقعة أن يقبعوا في حفرهم دومًا**».

كان عثمان الذي سبقهم، واقفًا مع زوجته وأولاده، وهو ينظر إلى عبّاس. ولا زال حسين يفكّر في هذه العمليّة السهلة، كما يفكّر في سؤال صعب:

«**حاجّ! الآن وقد انتهى كلّ شيء، أخبرنا ما القضيّة؟ وهل نحن غرباء؟**» [ألا تؤمّنوننا على الأسرار؟].

أشار عبّاس إلى عثمان وقال: «**بالتأكيد سأخبرك**».

جاء عثمان فرحًا إلى عبّاس، وقال: «**لقد ذبح أهالي دزلي مئة بقرة ونعجة كقرابين من أجلكم. إنّهم مسرورون جدًّا لقدومكم**».

قبّل عبّاس جبينه، وقال: «**هذه المنطقة من اليوم فصاعدًا هي منطقة آمنة ومستقرّة. بعد عدّة أيّام ستستقرّ مراكز الشرطة هنا. والآن، هل لا زلت تريد ترك المنطقة؟**».

«**لا يا سيّد عبّاس، أيّ مكان أفضل من المكان الذي تقومون أنتم بحراسته؟!**».

عندمـا ودّعا بعضهما بعضًـا، سمع عبّاس صـوت عثمان من بعيد: «**سيّد عبّاس، سامحني**».

ارتسمت على وجه عبّاس ابتسامة ولوّح له بيده.

بعـد يومين، كان حسين يجلس وهو يستمع بفرح وسرور إلى مسؤول الاستخبارات في المنطقة:

«**في تلك الليلة قلت للمخترقين من رجالنا: تكليفكم هو أن تقصفوا بالقذائف موقع دزلي، من صباح السبت إلى غروب يوم الأحد. وكنت أبتغي من خلال هذا العمل الإيقاع بين جماعات الكوملة والحزب الديمقراطي**».

«**أرأيت؟ كان الله معنا، فقد تعبوا من القتال إلى درجة، لم يستطيعوا فيها الصمود ولو لساعة أمام قوّاتنا. دعك من مقولة أنّهم لم يكونوا يصدّقون أنّنا سنفتح حصن «دزلي»** بسهولة.

رفع حسين يده من تحت ذقنه، وملأ صوت قهقهاته الأرجاء. نظر عبّاس إليه بتعجّب. ضحك حسين من جديد وقال:

«**أنا أخاف من أعمالك، وعليّ أن أختبئ أيضًا، كأعداء الثورة، في الصحارَى والجبال**».

كمين في كمين

نهض عبّاس من مكانه وقال: «**حاضر**»!.

ربت همّت[1] على كتفه، وقال: «**لسنا أضعف من العدوّ أبدًا، ما كان ينبغي أن ندعهم يأسرون أحد عشر عنصرًا منّا بهذه البساطة**».

طأطأ عبّاس رأسه أرضًا وقال: «**سأسعى جهدي، إن شاء الله؛ لن أرجع خالي الوفاض**».

حين خرج من دشمة القيادة وقعت عيناه على حسين. كان حسين ينتظره، وما إن رأى عبّاسا حتّى تقدّم نحوه وسأله: «**بالنهاية، أين ينبغي أن نقوم بالعمليّات؟**»

مسح عبّاس العرق عن عنقه المتصبّب، بكوفيّته وقال: « **كان رأي الحاجّ همّت أن نقوم بالعمليّات على مخفر الرشيديّة، لكنّ رأيي كان أنّ الأفضل أن نقوم بها على تلال الـ 85، وقد بيّنت السبب فوافق الحاجّ على ذلك**».

حكّ حسين صدغه وغرق في التفكير.

«**بماذا تفكّر؟**».

---

(1) الشهيد محمّد ابراهيم همت، أحد قادة الجبهة المعروفين بشجاعتهم وبأسهم وتضحياتهم الرفيعة؛ تولّى مسؤوليّة قيادة فيلق «**محمّد رسول الله 27**» . وهو من القادة الذين تحقّقت على أيديهم انتصارات عظيمة سواء في ميادين الحرب العسكريّة أم في ميادين صناعة القلوب العاشقة والمجاهدة؛ فقد جذب آلاف القلوب وكان قدوةً وأسوةً حسنة. تروي والدته قصة معروفة حول ولادته. كل من عرفه تعلّق به وأنس بحديثه وعشق صحبته. كما تروي عائلته خواطر عن حياته في كتاب «وداع الشهداء» الذي سيصدر قريبًا ضمن سلسلة روايات وقصص «**سادة القافلة**».

نظر حسين بعيدًا، ثمّ قال: «**لا شيء، علينا فقط توخّي الدقّة حتّى لا تأتي النتائج عكسيّة**».

ضحك عبّاس، أخذ بعضده وشدّه إليه: «**فلنتوكّل على الله، في رأسي خطّة محكمة، إن عملنا فيها بجدّ نظفر بنتائج جيّدة**».

في صباح اليوم التالي، انطلقوا قبيل شروق الشمس. لم يكن الطريق طويلًا، وحين وصلوا أشار عبّاس إلى هضبة الروابي المتّصل بعضها ببعض، وقال:

«**صباح كلّ يوم، يأتي حوالي عشرين عنصرًا عراقيًّا إلى تلال الـ 85**»، ويغادرون ليلًا».

نظر حسين إلى بعض النجوم تومض في زرقة السماء الفاتحة، والبسمة على وجهه: «**يا للعجب، معلوماتك دقيقة يا صبيّ**».

وضع عبّاس المنظار على عينيه، وقال: «**علينا، من الآن فصاعدًا، أن نزحف، توخّيًا للحيطة والحذر**».

عندما وصلوا إلى سفح الهضبة، كان العرق يتصبّب من رؤوسهم ووجوههم. نظر حسين فيما حوله. فهم عبّاس ما كان يقصد بنظرته تلك:

«**لا تقلق، إنّهم لا يتوقّعون أبدًا قدومنا في وضح النهار**».

رفع حسين رأسه، وقال وهو يلهث:

«**ولِمَ أقلق؟ ما دمتَ أنت معي فجثّتي لن تبقى مرميّة على الأرض!**».

ضحكا معًا. رسم عبّاس خطوطًا عدّة على التراب، وقال:

«**ينبغي لهذه النقطة أن تكون نقطة استسلام العراقيّين...**».

ضحك حسين وقال: «**أي نقطة المقتل؟** ».

تظاهر عبّاس بأنّه لم يسمع ما قال، وتابع: «**..علينا إطلاق النار عليهم من هذين المكانين، وهذه النقطة هي الأهمّ من أيّ مكان آخر. أي المكان الذي ستعبر منه قوّاتنا لأسر جنودهم**».

رفع حسين حاجبيه وقال: « **ماذا لو أرادوا المقاومة أكثر من حصّتهم؟**».

لم ينتظر جواب عبّاس وتابع وهو يتلمّس سبطانة سلاحه الباردة:

«**في هذه الحالة ستُفتح أبواب جهنّم**».

عاد عبّاس ووضع المنظار على عينيه، وأشار وهو على تلك الحال إلى التلال:

«**هنا يوجد ممرّ ضيّق، يمكنهم من خلاله العودة إن أرادوا**».

فكّر حسين أنّه إذا نُفّذت خطّة مسؤول الاستخبارات، سيتلقّى العدوّ ضربةً كبيرةً. بعد يومين، كان الجميع مستعدّين للتوجّه إلى المنطقة لتنفيذ العمليّات. قُسّمت القوّات إلى ثلاث مجموعات. وبيّن عبّاس مرّة أخيرة الهدف من هذا الهجوم:

«**إخواني، من الآن فصاعدًا، سنتقدّم على أمل النصر. هدفنا الأساسيّ من هذه العمليّات هو أخذ أسرى من جنود العدوّ؛ لكي نزلزل معنويّاته**».

بعد مضيّ ساعة من الوقت، أصبحوا في منطقة يسيطر عليها العدوّ. قال عبّاس:

«**يظنّ العراقيّون أنّ أحدًا لن يجرؤ على الاقتراب من الهضبة! هم محقّون حتمًا؛ ونحن أيضًا محقّون؛ لأنّنا نظنّ أنّهم يحلمون**».

صدرت أوامر العمليّات باكرًا؛ ومع انطلاق أوّل رصاصة، كان عبّاس يستطلع بمنظاره موقع العدوّ وتموضعه. أعطى عامل الإشارة [اللاسلكيّ] عبّاسًا السمّاعة، وقال: «**إنّه الأخ حسين**».

«**أنا معك، حوّل**».

«**حاجّ عبّاس، أما فكّرت أنّه إن وصلت قوّات الدعم إليهم فسنلقى حتفنا جميعًا؟**».

وفيما كان عبّاس ينظر إلى عمليّة تبديل الجنود العراقيّين قال:

«**لا تقلق... فالأبطال العراقيّون بعيدون مسافة 2 كيلومترًا عن خطّ دفاعهم، ولا يمكن لقوّاتهم أن تصل في الوقت المناسب، اهجم أنت بقوّاتك، واطمئنّ، سنحصل على نتيجة جيّدة.**»

«**يا علي**».

مع هجوم المجموعة الأولى بقيادة حسين، دبّ الرعب في صفوف العراقيّين، وأخذ منهم كلّ مأخذ. قال عبّاس:

«**على المجموعة الثانية أن لا تتدخّل الآن، حتّى نطيل أمد الرعب والخوف في قلوبهم**».

لم يتوقّف العراقيّون لحظةً عن إطلاق الرصاص. ضغط عبّاس

على عدّاد الوقت، وراح يحدّق فيه: «1..2..3..15». والآن أصبح مطمئنًّا من أنّ حسين وقوّاته قد باغتوا العدوّ من الخلف.

□□□

عندمـا أحسّ الضابط العراقيّ ببـرودة الخنجر علـى وريده، جثا على ركبتيه وألقـى سلاحه إلى الأرض. لم يكن يظنّ أنّ كمينهم سيقع فـي الكمين. عندمـا هدأت أصـوات النيران نوعًا ما، نـزل عبّاس من المرصد: «**الجميع يعلم ما هي مهمّة مجموعتنا؟**».

«**نعم يا حاجّ، أخذ أسرى فقط**».

استعـدّت العناصر التي تعمل تحت قيادة عبّاس بسرعة، وانطلقت. ومن جديد عاد أزيز الرصاص يُدوّي. صاح عبّاس: «**نريد أخذ أسرى، فقط!**».

بادر بعض جنود العـدوّ إلى المقاومة. كانت دائرة الحصار تضيق شيئًـا فشيئًا. لم يكن أمام مجموعة ممّن ينبغي أسرهم طريقًا للفرار. عندما رفعوا أيديهم مستسلمين، وصل حسين:

«**الحمـد لله الذي وفّقنـا. الآن نذهب ونأخذ حمّامًا باردًا، ونطلب الكباب البائت من المطعم**».

أخذ عبّاس بيده وقال:

«**إلى أين؟! لماذا تتصرّف وكأنّك قليل الخبرة؟!**».

نظـر حسين إليه بتعجّب، وقال: «**لم يعـد لدينا من عمل هنا. وقد أسرنا، بحمد الله، بدل الأحد عشر، ثلاثة عشر أسيرًا**».

ضحك عبّاس وهو يمسح على شعره الأغبر، وقال:

«اسمع أيّها الصبيّ، لم ننهِ عملنا بعد، أرسل الشباب فورًا إلى داخل الدشم، ومُرهم بالاستعداد، وأكّد عليهم عدم الوقوف في مرأى البصر».

«لكن يا حاج، هذا لم يكن جزءًا من خطّتنا».

حين رأى نظرة عبّاس الغاضبة، انحنى بشقاوة طفوليّة وقال: **«نعم، نعم! السماجة في البداية، ومن ثمّ الطاعة في النهاية».**

لم يكن أحد ليعلم لِمَ كان يتوجّب عليهم البقاء في الدشم بحالة الاستعداد. عاد عبّاس إلى المرصد. لم يطل انتظارهم. فجأةً، ملأ صوت رشقات الرصاص الأرجاء. نظر حسين متحيّرًا، وقال:

«لقد هجم الأعداء، لو كنّا رجعنا لكانوا انقضّوا علينا من الخلف».

بأمرٍ من عبّاس، نزلت القوّات إلى المعركة من جديد، وأمطرت الأعداء بزخّات النار. ومرّةً أخرى، تفاجأ العراقيّون فانسحبوا. جثا حسين على ركبتيه وقال:

«بوركت يداك يا حاج عبّاس، أحسنت صنعًا».

ضُيّق الخناق على بعض جنود العدوّ الذين تقدّموا كثيرًا، فاستسلموا ولم يقاوموا. نظر حسين إلى الطريق الضيّق، وقال:

«طبقًا لتوقّع الحاج عبّاس، البقيّة لاذوا بالفرار».

قال عبّاس: هذا الجزء من العمليّات هو ما كنت قلقًا بشأنه«.

رمى حسين بنفسه أرضًا وقال: أنا أسير ذكائك يا حاجّ».

عــادت القوّات إلى الموقع قبل حلول الظهر. كان الحاجّ همّت واقفًا ينظــر إليهم. كان غاصًّــا بعبرته، فلم يستطع التكلّــم؛ لكنّ وجهه كان مفعمًا بالفرح. وحين بدأ بالكلام، كانت كلماته تُسمع من بين الغصّات والدموع:

«**كاد ظهري ينكسر، أجركم عند الإمام الحسين** عليه السلام».

بعد ذلك، بدا وكأنّه يبحث عن شخص ما، نظر إلى صفّ التعبويّين وصاح:

«**لكن، أين ذلك الأسد المقدام؟**».

نظــر الجميع خلفهم، ليــروا عبّاساً واقفًا في آخــر صفّ، مطأطئًا رأسه إلى الأرض.

رجل بالكوفيّة البيضاء

عندما وصلنا إلى مفترق طرق، داس السائق على المكابح، وقال: «**مع السلامة أيّها السادة، إلى الثكنة سيرًا على الأقدام**».

قفـز باقر من شاحنة التويوتا؛ وأخذ بيدي ويد مرتضى. بعد أسبوع إجـازة واستشمـام الروائح المتنوّعة في المدينـة، ها هي الآن، رائحة منطقة القتال تبدّل أحوالي.

نظـر مرتضى إلى ساعته وقال: «**ها نحن نصل مـن جديد قريب الغروب**».

عقّـب باقر علـى كلامه متثاقـلًا: «... **وأيضًـا على مفتـرق طريق الغمّ**».

حمـل مرتضـى حقيبته علـى كتفه وانطلـق. جلس باقـر إلى جانب الطريـق الترابـيّ، وراح ينظر إلى حمرة الغـروب. تحيّرت، أأذهب مع مرتضى أم أجلس إلى جانب باقر: «**هل جُنّ؟**».

كنت أرقب مرتضى وهو يغادر، وأقول: «**من منّا ليس بمجنون؟**».

انتفضـ باقر الـذي بدا وكأنّ غضبـه قد سكـن، وراح يضرب على صـدره مثل الغوريلّا قائلًا: «**قل لحضـرة المخبول أن يصـبر لنذهب معًا**».

وضعـت إصبعي المتّسخ فـي فمي وصفّرت. استـدار مرتضى وراح ينظـر إلينا؛ وإلـى حين وصولنا، طـرح حقيبته أرضًـا وسط الطريق، وجلس عليها. تداخلت بعض الغيوم الحمراء والرماديّة بعضها ببعض،

وشارفت الشمس على المغيب. جعلت كوفيّتي كمنشفة حمّام، فكنت أمسح بها رأسي وصدري وتحت إبطي وأتأفّف. وها نحن الآن، لقد خبرنا حرّ الجنوب جيّدًا، وقد تعوّدنا عليه شئنا أم أبينا. عندما وصلنا إلى مرتضى وجدناه قد انطرح أرضًا جثّة هامدة، وممدّدًا [كحالة الأموات] . حمل باقر حقيبته، وضعها على كتفه الآخر، وقال:

«**أتظنّ أيّها المخبول أنّنا لم نفهم أنّك تمثّل دور الجثّة؟**».

هبّ مرتضى من مكانه فرحًا مسرورًا، وأخذ رأس باقر في أحضانه:

«**هل اقتنعت أخيرًا، بكلام هذا المخبول أم لا؟ إن أردت أن لا تموت غيظًا على مفترق طريق الغمّ، عليك المخاطرة، مشيًا!**».

كنّا ثلاثتنا نعلم أنّه علينا أن نمشي مسافة50 كلم بالحدّ الأدنى، للوصول إلى الثكنة.

شعر باقر بالملل، وكانت الكلمات تخرج من فمه على مهل:

«**أنا.. بالنهاية سأهيم على وجهي في الصحارَى والجبال بسببك**».

وضع مرتضى يده تحت حزام الحقيبة، ونظر إلى باقر بمحبّة:

«**يا لرفقاء اليوم! يتخاصمون ويحملون حقائب المخبولين على أكتافهم!**».

ضحكنا نحن الثلاثة؛ قال مرتضى: «**أتوافقون على أن ندخّن غليون الصلح؟**».

بعدها أدخل يده في حقيبته، وأخرج منها «**القضامة والزبيب**»

التي كانت أمّه وضعتها له كزوّادة سفر، وقسّمها علينا. مشينا أكثر من ساعة. عندما أظلمت السماء جيّدًا، عرفنا أيّ خطأ كنّا قد ارتكبنا.

«**يا شباب، أرى أنّ من الأفضل أن لا نتقدّم أكثر من هذا، أخشى أن نقع في الأسر**».

رجع باقر الذي كان يتقدّمنا ببضع خطوات غير مكترث لما حوله، محاولًا توجيه ركلة إلى مرتضى، الذي فرّ منه بتثاقل من شدّة الضحك:

«**لو كنت قائدًا في المعركة، فليس من المستبعد أن يؤسر جنودك على بعد مئة كيلومترٍ من الخطوط الأماميّة**».

عاد مرتضى وأخرج قبضة من القضامة والزبيب، وناولها لباقر قائلًا بصوت أجشّ:

«**صحيح أيّها الجنديّ، من الأفضل أن نجدّد غليون الصلح**».

عندما عدت لأنظر إلى وجه مرتضى، وجدت أنّ ملامحه الهزليّة قد تغيّرت، تسمّرت في مكاني. فقد رأيت نورين من البعيد أشبه بحبّتي بُندق مضيئتين. كان النوران يزدادان ويكبران شيئًا فشيئًا. كنت أنظر بفرح إلى الطريق الترابيّة. حوّل مرتضى حقيبته من كتف إلى آخر وصاح:

«**يا جدّاه**».

كان النور يكبر ويكبر، لم أصدّق ما أرى. شاحنة تويوتا تتوقّف على بعد أمتار أمامنا، وتنثر الغبار والتراب على رؤوسنا ووجوهنا. أضاء السائق النور داخل السيّارة. كان يجلس شخص واحد فقط إلى جانبه. وما أن تقدّمنا حتى قال مرتضى ممازحًا:

«**الراكب لا يشعر بالماشي**».

ضحك الرجل الجالس إلى جانب السائق، وكان يضع على كتفيه كوفيّة بيضاء، قائلًا: «**بل يشعر**». قطّب السائق جبينه، ووضع ناقل الحركة باتجاه الخلف وداس عبثًا على دوّاسة البنزين:

«**هيّا اركبوا**».

وضع الرجل ذو الكوفيّة البيضاء- الذي كان يرتدي بدلة تعبئة باهتة اللون- يده على يد السائق، وأشار برأسه إلى مؤخّرة الشاحنة. بعد ذلك نظر إلينا، وقال:

« **يتّسع هنا المكان لاثنين من الإخوة الأسود؛ أمّا أنا فأريد أن أذهب للخلف لأستنشق هواءً جديدًا**».

وثب باقر فورًا، وجلس إلى جانب السائق. وضع مرتضى حقيبته في مؤخّرة التويوتا؛ ومن دون استعمال يديه، قفز قفزةً واعتلى الشاحنة. وحتّى لا أضيّع الوقت، جلست أنا أيضًا في المؤخّرة. أخرج باقر رأسه من النافذة وراح يتوعّدني. كانت السيّارة تتحرّك والهواء الساخن يلفح وجوهنا.

«**حتمًا تريدون الذهاب إلى الثكنة؟**».

نظرت إلى وجه الرجل ذي الكوفيّة البيضاء- وقد لفحت وجهه الشمس- وأجبته:

«**نعم**».

أسند مرتضى رأسه على حقيبته وقال:

«لا تقل الثكنة، قل جهنّم. فطريق الحرير[1] ليست شاقّة وطويلةً إلى هذا الحدّ».

مسح الرجل ذو الكوفيّة البيضاء بيده على لحيته، وراح يهزّ رأسه كمعلّم الحساب والهندسة. كنت أشعر أنّ كلامًا كثيرًا يريد البوح به. وهذا ما كان ظاهرًا على وجهه.

«أَوَلستم من عناصر التعبئة؟».

تجافى مرتضى عن الحقيبة وعدّل جلسته، قائلًا:

«تفضّلوا، اقرؤوا الفاتحة، ها قد أصبحنا الآن من عناصر التعبئة».

وضع الرجل ذو الكوفيّة البيضاء يده على يد مرتضى، ونظر إليه لحظة، دون أن يتكلّم. وضع مرتضى يده الأخرى على صدره وانحنى:

«أنا فداء لك يا أخ، أتريد أن تقوم بمعجزة؟».

ضحك الرجل ذو الكوفيّة البيضاء مليًّا من كلام مرتضى، ومن ثمّ قال:

«ما شاء الله على هذه الروحيّة!».

لوى مرتضى شفتيه؛ فتح سحّاب حقيبته، أخرج منها قبضة من القضامة والزبيب، وقدّمها:

« كُلْ، فهذا جيّد من أجل فكّك. نحن نطلق على هذا غليون

(1) تاريخيًّا كانت طريق الحرير تربط بين الشرق والغرب؛ وتمرّ عبر إيران وكان ينقل خلالها البضائع وخاصّة الحرير، من بلدان الشرق الأقصى إلى مختلف الدول وخاصّة أوروبا.

المصالحة؛ لأنّه يؤدّي بنا إلى عدم التكلّم بأيّ كلام زائد، كما يجنّبنا لكمات الأصدقاء وركلاتهم».

نظـرت إلى السمـاء، كان القمر يسيـر معنا. أُعجبـت بالرجل ذي الكوفيّـة البيضاء. وددت لو يتكلّم مرتضى معه بلباقة أكثر؛ لكنّ توقّعي لم يكن في محلّه.

«أنتَ أيضًا تعبويّ، هذا يبدو على هيئتك أكثر منّا».

هزّ الرجل ذو الكوفيّة البيضاء رأسه، لم تكن البسمة تفارق محيّاه:

«مثلك، ولكن ليس بمثل إخلاصك».

شعـرت بالتعب الشديد، فأغمضت عينيّ. لكنّ مرتضى كان لا يزال يطلق سيلًا من الكلمات، وكأنّ غليون المصالحة لم يستطع إيقاف فكّه عن الحركة:

«... سمعت أنّ قائد الفيلق قد تغيّر. عساه يفكّر بمشكلات الإخوة التعبويّين؛ مع أنّه لا أمل لديّ».

سلـب كلام مرتضى المتواصل صفـو مزاجي. لم أستطع فعل شيء سـوى أنّي غفوت لبرهة. وكما يبدو سيعمل مرتضى، خلال مسيرنا إلى الثكنة، على تفريغ المعلومات من الرجل ذي الكوفيّة البيضاء:

«... لـو كنـت قائـد الفيلق لأصـدرت الأوامر بصـفّ عشـرة آليّات عسـكريّة، عنـد بداية مفتـرق طريق الغمّ؛ كي يتمكّن شـباب التعبئة المساكين من الوصول إلى الثكنة بسهولة؛ كما حصل معنا».

«وهل هذا غمّك الوحيد؟».

تلعثم مرتضى، وراح ينظر شزرًا إلى الرجل ذي الكوفيّة البيضاء:

«**عجبًا، كأنّك لست من هذا الوادي! أتعلم أين هو منعطف الغمّ؟ هل ترى هذا الطريق الذي يهدهد لنا لنغفو؟ أُسلكه حتّى تصل أوّله**».

هزّ الرجل ذو الكوفيّة البيضاء رأسه موافقًا على كلام مرتضى، وتبسّم. وقع نظري على الزجاج الخلفيّ للشاحنة. كان باقر يرفع عينيه وحاجبيه، وينزلهما وكأنّه يريد أن يفهمنا أمرًا ما. وبينما هو يشير إلى الرجل ذي الكوفيّة البيضاء كان يضرب رأسه. فهو أيقن جيّدًا أنّ مرتضى كعادته خلط الأمور بعضها ببعض.

«**وهل من مشكلة أخرى؟ أم هذه فقط؟**».

عاد مرتضى واتّكأ على الحقيبة؛ قال بألم: «**لا يا جناب القائد، الباقي السلامة، ومن ثمّ الشهادة**». وضع الرجل ذو الكوفيّة البيضاء يده على كتف مرتضى، ونظر إليه بحنوّ:

«**لِمَ أنت منزعج؟ تكلّم براحة، احسب أنّي قائد الفرقة**».

أغمض مرتضى عينيه هذه المرّة، وتمدّد واضعًا رأسه على حقيبته. أظنّ أنّ غليون المصالحة قد فعل فعله. قال وهو يستسلم للنوم:

«**لا يا أخ، ففئة دمي ودمك لا تؤهّلنا، لأن نكون قادة؛ الحداء للنوم الآن أفضل**».

سُررت لرؤية عيني مرتضى مغمضتين، أكثر من رؤيتي لشاحنة التويوتا. كنت بين النوم واليقظة حينما تناهى إلى سمعي صوت باقر يقول:

«**لقد وصلنا**».

ترجّـل الرجل ذو الكوفيّة البيضاء معنـا، عانقنا نحن الثلاثة. قلت له في اللّحظة الأخيرة:

«**أعذرنا، فرفيقنا هذا، سهل المعشر مع الآخرين**».

أمسك الرجل ذو الكوفيّة البيضاء بكلا عضديّ، وتبسّم قائلًا:

«**هكذا أفضل، فالأصل هو الإخلاص، وهو يتحلّى به**».

عندما ابتعدت شاحنة التويوتا ضرب باقر على جبينه، وقال:

«**عرفتم من كان؟**».

أدار مرتضى حقيبته من كتف إلى آخر، وقال وهو يرمي حبّة قضامة في الهواء محاولًا التقاطها بفمه:

«**نعم، كان ابن أبيه**».

سكـت باقـر، وأكملنا طريقنا. ليـلًا، حين كنّا ممدّديـن في الثكنة نعاين السقـف، تناهى إلى سمعنا صوت باقـر، وكأنّه كان يتحدّث إلى نفسه:

«**ذاك الشـخص الـذي كان جالسًـا فـي مؤخّـرة التويوتـا هو قائد الفرقة؛ الحاجّ عبّاس كريمي**».

فجـأةً، راح مرتضـى يرتعد ارتعـاد المصعوق بالتيّـار الكهربائيّ. اتسعـت حدقتـاه، وشحب لونه. نظـر إلى باقر، كانت عينـا باقر أيضًا مبتلّـة بالدمـوع. لم يعد هناك من شكّ بالنسبـة إلى مرتضى. وقع في مكانـه كجثّة هامـدة. بعدها مدّ يديه المرتجفتيـن، وسحب البطانيّة؛

ليغطّي به رأسه في حرّ الثكنة المضجر؛ وراح ينتحب ويبكي إلى أن طلع الفجـر. بعد ثلاثة أشهر، حين أردنا أن نذهب في إجازة، كنّا مرتاحي البال. وكنّـا نعلم أنّه حين عودتنا، سنجد صفًّا مـن الآليّات العسكريّة عند مفترق «**الغمّ**».

الطيّار الذي أراد الوقوع في الأسر

كان أزيز الرصاص يُسمع من كلّ ناحية. وكانت بعض القوّات تتقدّم باتّجاه دشم العدوّ. والقذائف المدفعيّة تنفجر هنا وهناك؛ فتهتزّ الأرض بنا كالسرير الهزّاز. غطّت منطقة العمليّات طبقة كثيفة من الغبار والدخان. مع سماع هدير الطائرات، بدأت مضادّات الطائرات عملها. أطلّ عدد من مطلقي الـ (أر بي جي) برؤوسهم من خلف الساتر، عاينوا الدبّابات.

«**أطلق مجتبى، أطلق، إنّه يفرّ!**».

ركض أحد مطلقي الـ (أر بي جي)، جثا على ركبته فانطلقت القذيفة مسرعة كخطّ أسود رفيع، واستقرّت في هيكل الدبّابة الفولاذيّ.

«**الله أكبر!**».

رفع طاقم الدبّابة المحترقة أيديهم فوق رؤوسهم وتقدّموا. عاد هدير الطائرة يصدح في الأجواء. كانت القوّات المقاتلة ترقب السماء بعين، وتنظر أمامها بالعين الأخرى. أطلقت المضادّات زخّات متتالية. فجأةً، اهتزّت الأرض تحت أقدامنا. وضع كريم المنظار على عينيه، وراح يراقب المكان الذي ينبعث منه الدخان والغبار:

«**مضت على خير**».

تقدّم عامل الإشارة بوجهه المغبرّ، وقدّم السمّاعة إلى كريم:

«**الحاجّ عبّاس على الخطّ، يسأل عن الأوضاع والأحوال**».

أخذ كريم السمّاعة، ووضع إصبعه في الأذن الأخرى؛ ليسمع صوت القائد بشكل أفضل.

«**ما الخبر عزيزي كريم، سمعت نعيق غربان، أأرسل لكم المساعدة؟**».

كان كريم يجثو على ركبتيه، ويضغط بالسمّاعة على أذنه أكثر فأكثر. فقد كان الصوت يأتي إليه مشوّشًا.

«**لا تدعوا الدبّابات تتقدّم... وانتبهوا أيضًا من طائرات العدوّ.**»

كانت إحدى طائرات العدوّ تحلّق على علوّ منخفض، فجأةً، بدأت تهتزّ. ومن جديد سُمعت أصوات مضادّات الطائرات. كان كريم ينظر إلى السماء وهو يضع السمّاعة على أذنه. رأى شيئًا شبيهًا بالدخان المتصاعد من قناة مدفأة، ينبعث من مؤخّرة الطائرة. والظاهر أنّ المقاتلين الآخرين قد رأوا ما رآه، فارتفعت أصواتهم بالتكبير.

«**كريم، ماذا يجري عندك...؟**».

انتفض كريم من مكانه وراح يضحك. لم يستطع أن يخفي فرحته العارمة:

«**أصبناه، أصبنا أحد الغربان. إنّه يسقط، كان هذا بفضل نَفَسِك الطاهر يا حاجّ عبّاس**».

□□□

أشار عبّاس إلى صندوق الذخيرة الخالي، وقال: «**تفضّل، اجلس**». تقدّم الطيّار العراقي الذي كان ينظر إلى عبّاس وجلس. كان

صنـدوق الذخيرة الذي اتُّخذ ككرسيّ فـي مكتب القيادة، يقرقع تحت وطأة ثقل جسم الطيّار الضخم.

«**فكّوا وثاقه.**»

تقدّم فؤاد قليلًا وقال: «**هذا أمر خطر يا حاجّ، إنّه بحجم طائرته، قـد تـرى فجـأةً أنّـه تحـوّل إلى طائـرة و...**» هـزّ عبّاس رأسه برفق وابتسم قائلًا:

«**لا تقلق، لن يحدث شيء**».

حرّر أحـد التعبويّين برفق يدي الطيّار. فرك الطيّار معصمه وركّز جلسته على صندوق الذخيرة.

«**ألست جائعًا؟**»

ترجـم فؤاد كلام عبّاس. وضع الطيّار العراقي يده على بطنه وردّد جملـةً عدّة مرّات. ضحـك فؤاد، وقال:«**الواضـح أنّه مسـتعدّ لابتلاع بقرة**».

قـام عبّاس من مكانه وتوجّـه إلى الطيّار. ركّز فـؤاد جلسته، وكان يراقـب الطيّـار أن يقـوم بحركة خاطئـة. وضع عبّاس يـده على كتف الطيّار، وقال: «**هل تعلم على من كنت تطلق الصواريخ؟**». ترجم فؤاد على الفـور. حدّق الطيّار في نقطة معيّنـة. كان التعبويّ الشابّ ينتظر أمر القائد بإحضار الطعام. لم يمهله عبّاس:

«**اذهب وأحضر الطعام إلى هذا المسكين. وقل لهم عن لساني أن يحضروا له وجبة تكفي لعشرة أشخاص**».

تكلّم فؤاد كلامًا بالعربيّة، فضحك الطيّار. أخذ عبّاس بيد الطيّار وقال: «**إنّنا لا ندّعي أنّنا سنتعامل معك بعدلٍ كعدل عليّ** عليه السلام، **ولكن هذا حساب الحرب التي ابتدأتموها، وإذا ما وقع، أسير في أيدينا سنحسن معاملته تأسيًّا بعليّ** عليه السلام».

بعد أن ترجم فؤاد ما قاله عبّاس، أخفى الطيّار وجهه بيديه؛ جلس عبّاس على صندوق الذخيرة الخالي إلى جانب الطيّار، قال وهو ينظر إليه: «**دعوني وحدي مع هذا الأسير. أظنّ أنّ تصرّفنا سيكون له أثرٌ أشدّ من الكلام والشعارات**». نظر فؤاد إلى عيني الطيّار الممتلئة دموعًا وخرج.

❧❧❧

والآن، لم تعد قامة الطيّار الضخمة تؤدّي إلى تعجّب أحد. فقد سمح له عبّاس بالتحرّك بحريّة بين القوّات. سُرّ الطيّار كالأطفال الصغار بتعامل القوّات الإيرانيّة. ولكنّ جلوسه خلف أحد السواتر الترابيّة أثار شكّ كريم. جاء فؤاد -المستعدّ دومًا- برفقة كريم، بينما كان الطيّار يلفّ يديه على ركبتيه، ذارفًا الدموع. جلس فؤاد إلى جانبه، كان الطيّار ينظر أمامه ويقول:

«**منذ أن فتحت عينيّ على هذا العالم، شهدت أمورًا غريبةً وعجيبة. لكنّني إلى الآن لم أرَ أناسًا يشتغلون بالسلاح ليل نهار، رحماء بالصديق والعدوّ إلى هذا الحدّ. لم يخبرنا الجيش العراقيّ يومًا من نقاتل. لقد تعرّفت في الأيّام العشرين هذه على معتقداتكم.**

لقد علّمني هذا الجنديّ الذي يمكث معي دروسًا عظيمة جدًّا في الشرف والمروءة...».

«عن أيّ جنديّ تتكلّم؟ هل تقصد الحاجّ عبّاس؟».

أجاب الطيّار: «**نعم، أقصد الجندي عبّاس كريمي**». ضحك فؤاد، وقال: «**صحيح، فهو جنديّ وهو أيضًا قائد اللواء. أي هو قائد جميع من يقاتل في هذه المنطقة**».

تبسّم الطيّار إذ ظنّ أنّ فؤاد يمازحه، لكنّه انتفض فجأةً حين حدّق في وجه فؤاد. رأى فؤاد قطرات العرق تنصبّ بغزارة على جبينه. تكلّم الطيّار بصعوبة، وعبرته تخنق صوته:

«**أي إنّ هذا الشابّ النحيل، بهذا الزيّ البسيط ومن دون نياشين هو قائد اللواء؟!**».

كيف يمكن لقائد اللواء أن يعيش عدّة أيّام وليالٍ مع ملازم؟! أنت لا تقول الحقيقة يا فؤاد!».

ضحك فؤاد وقال: «**للحاجّ عبّاس باعٌ طويل في القتال. حتّى حين كان يقاتل في كردستان، رصد أعداء الثورة والعراقيّون جائزةً لمن يقتله**».

لم ينتظر الطيّار حتّى ينهي فؤاد كلامه وانطلق. لم يكن فؤاد يعلم ما يدور في رأس الطيّار. ركض الطيّار بسرعة، تبعه فؤاد، وما إن وصل إليه حتّى كان قد دخل دشمة الحاجّ عبّاس. نظر الحاجّ عبّاس بتعجّب إلى وجه الطيّار المضطرب. دخل فؤاد فرأى الطيّار جاثيًا على ركبتيه.

لم يكن عبّاس يفهم ما يقول الطيّار. فقد كان يتكلّم ويبكي.

توجّه فؤاد إلى الحاجّ عبّاس وقال:

« اضطرب فجأةً، عندما أخبرته بأنّك قائد اللواء. المسكين لم يكن يعلم أنّه قد عشق قائد لواء. كان يظنّ أنّك شخصيًّا أعلى رتبةً من الحارس».

أخذ عبّاس الطيّار من تحت إبطيه ورفعه عن الأرض. قال فؤاد:

«حقًّا، ما الذي فعلته به يا حاجّ عبّاس؟».

أجاب عبّاس وهو يمسح دموع الطيّار:

«ما كان ينبغي أن أفعل؟ تعاملت معه كما يتعامل جميع شباب الجبهة مع الأسرى».

بعد أيّام عدّة، دخل فؤاد دشمة القيادة والسرور بادٍ على محيّاه، وقال:

«الطيّار العراقي، غير راضٍ بأن يُرسل إلى مخيّم الأسرى، ويقول: أريد أن أكون كجنديّ تحت إمرة قائدكم».

في الأيّام اللاحقة زفّ عبّاس إلى قوّاته خبرًا مفرحًا:

«أيّها الإخوة الأعزّاء، بناءً على المعلومات المهمّة التي وضعها الأسرى بين أيدينا طوعًا ورغبةً، استعدّوا للقيام بعمليّات والفجر».

التعبويّ الجديد

غرز «**مهدي**» الرفش ذا العصا القصيرة في التراب، وجلس. كاد نفسه ينقطع من شدّة التعب. نظر إليه «**حجّت**» وقال:

« **لم نبدأ بعد، حتّى مللت ويئست؟**».

نظر إليهما «**علي أكبر**» الذي كان يعمل بجهد جهيد، جلس جانبًا وقال:

«**ألا يوجد أحد في أرض الله الواسعة هذه، يريد أن يساعدنا؟ أيعقل أن يقوم ثلاثة أشخاص بحفر خندق؟**».

ظلّل «**مهدي**» عينيه بيده ونظر بعيدًا. لم يعد لديه قدرة على العمل، فهو منذ الصباح الباكر يحفر قطعة أرض صلبة؛ وذلك لتجهيز دشم الكمين سريعًا. كان قائد الكتيبة قد وعدهم بإرسال عناصر للمساعدة، لكن لم يصل أحد. وضع «**علي أكبر**» قارورة الماء على فمه، كانت كلماته تتداخل بالعطش الذي يحسّ به:

«**... السلام على الحسين عليه السلام، ليكن الله في عوننا، فهذه الأرض لا تستطيع الجرّافة حفرها**».

ضحك مهدي وقال: « **أنت نفسك جرّافة يا بطل**».

مع سماع صوت إطلاق القذائف من مدفعيّة العدوّ، نظر الثلاثة إلى السماء، وقال علي أكبر:

«**لقد سقطت في موقع الشهيد شاكري**».

وضع حجّت يده على أذنه كالبوق ورفع رجله:

«**لا، الجهة اليسرى، يا متسوّل** »الحرث» سقطت[1] حيث لا يوجد آدمي. اي واأسفاه على القذيفة».

لم يكد مهدي يفتح فاه للكلام، حتّى اهتزّت الأرض تحت أقدامهم، وعبرت الشظايا من فوق رؤوسهم مثل سرب الزنابير. انفجرت قذيفة مدفعيّة خلف دشم الكمين، فملأت رائحة البارود الأجواء. أصدر مهدي سعالًا، وقال: «**إذن، قلت متسوّل الحرث؟ سقط «علي أكبر»** على الأرض وراح يتأوّه ويئنّ:

«**اقرأ الفاتحة على روحي، فلم أعد أستطيع مواصلة العمل**».

أجال «**مهدي**» نظره مجدّدًا في الصحراء. كان كلّ شيء يلمع تحت نور الشمس الساطعة. ذهب «**حجّت**»؛ لينقل الصفيحة المعدنيّة إلى إحدى الدشم التي أصبحت جاهزة. مسح «**مهدي**» عرق جبينه، تقدّم خطوات عدّة، وقال في نفسه:

«**أصحيح ما أرى**»؟.

صاح «**حجّت**»: «**فليأتِ أحد ويساعدني أنا التعيس الحظّ. لا يمكنني أن أضع الصفيحة أعلى الدشمة وحدي**».

توجّه «**علي أكبر**» نحو «**مهدي**» دون أن يكترث لنداءات «**حجّت**»:

«**ماذا يحدث يا مهدي؟ أصحيح ما أرى؟ يعني...**».

شدّ به «**مهدي**» إلى الأمام وقال بسرور:

---

(1) «**متسوّل الثّلم أو الحرْث**» تعبير يستعمل للدلالة على المحتاج إلى من يشقّ عنه ولو ثلمًا واحدًا في الأرض، وكناية عن الحاجة إلى العون والمساعدة.

«**ما أكثر ما تقول يعني يعني، ها أنت ترى!**».

التحق «**حجّت**» بهما، فرك يديه، وراح ينظر بفرح:

«**لقد أتى نور العين في الوقت المناسب!**».

عـاودت مدفعيّة العدوّ إطلاق قذائفهـا. جلس الثلاثة في أماكنهم؛ ليسمعـوا صـوت صفيـر القذيفة. رفع حجّـت يديه إلـى السماء وقال: «**إلهي، احفظ نور العين هذا**».

تمتم مهدي قائلًا: «**إنّه من عناصر الدعم**».

وذهـب باتّجاه الرفش. وقف حجّت بين يديه، صفـر صفرة البلبل وقـال: «**أغمِد الرفش، واحمِل المعول، فصـاحب الرفش في طريقه إلينا**».

أطلّ التعبويّ من وراء التلّة واتّجه نحوهم: «**عافاكم الله.**»

أجـاب «**حجّـت**» نيابةً عن الجميـع: «**لا أتعبـك الله أيّهـا القادم، لا يبـدو عليـك أنّك مـن ديارنا! كم أنـت مجهّز، منظـار، خنجر حربي، حزام ....يا لَلمهارة؟!**».

رفـع التعبـويّ القـادم الكوفيّة عن كتفيـه، مسح بهـا رأسه ووجهه وتبسّم قائلًا:

«**ليست من قيمتك**».

تناول «**علي أكبر**» الرفش من بين يدي مهدي، وضعها في يد التعبويّ القادم، وقال:

«**تفضّل، دع المنظار ومثل هذه الأشياء لوقت آخر**».

«**يا عمّ، أنا...**».

أشار «**علي أكبر**» إلى الحفرة وقد حُفر نصفها، وقال:

«**القصّة ما فيها يا عمّي، حيث إنّك أتيت إلى هنا عليك أن تكون مثل الجرّافة، مثلي تمامًا**».

تقدّم «**حجّت**» بضع خطوات منه، أخذ الرفش من يد التعبويّ القادم:

«**عن إذنك، علي أكبر خان، على نور العين هذا الآن، أن يساعدنا في وضع الصفيحة على سقف الدشمة، ومن ثمّ يكون في خدمتك، ويصبح كالجرّافة. موافق أيّها التعبويّ القادم؟**»

ضحك التعبويّ القادم مجدّدًا، وقال: «**كما تريدون**».

نظر علي أكبر - الذي باءت مساعيه بالفشل- إلى التعبويّ القادم. عاد الرفش ذو اليد القصيرة إلى يد مهدي من جديد. أخذ «**حجّت**» بيد التعبويّ القادم وجذبه نحوه قائلًا:

«**نحن ذاهبان**».

أدنى علي أكبر جعبة الماء من فمه، فيما كان يصل صوته إلى مسمع التعبويّ القادم:

«**عد سريعًا حالما تنهي عملك، إيّاك أن تتكاسل!**».

□□□

نظر «**حجّت**» إلى قامة التعبويّ القادم، وقال: «**ألم تكن رياضيًّا من قبل؟ رافع أثقال مثلًا، أو شيئًا من هذا القبيل؟**».

نظر التعبويّ من على سطح الدشمة إلى «حجّت»، الذي كان ممدّدًا في فسحة من الظلّ، وقال:

«**لا، ولكنّ المرء في الجبهة يصبح متعدّد المواهب، ولربّما يصبح رياضيًّا!**».

حوّل «حجّت» وجهه إلى الظلّ وتنهّد. لم يكن إلى ذلك اليوم قد رأى شخصًا يعمل بهذه الجدّيّة. كان لمس الصفيحة المعدنيّة الساخنة مثل حمل الجمر في اليد.

«**حقًّا، ألا تحترق يداك؟ أو إنّها احترقت ولكنّك تتظاهر بعدم حدوث ذلك؟**».

نزل التعبويّ القادم من على سقف الدشمة، مسح الجزء الخلفي لعنقه بكوفيّته، وقال:

«**الأجر المعنويّ لهذا العمل لا يجعل الإنسان يفكّر في هذه الأمور**».

عندما رأى حجّت علي أكبر انتفض من مكانه، وراح يريه الدشمة وقد أصبحت جاهزة:

«**قل سلمت يداك، ألا ترى أيّة عاصفة أحدثت؟**».

تظاهر علي أكبر بأنّه لم يسمع كلام حجّت، وتوجّه إلى التعبويّ القادم، قائلًا:

«**هنا لم يبقَ لديك أيّ عمل، بقي هناك دشمتان تنتظرانك**».

نظر التعبويّ القادم إلى ساعته، ووضع يده على عينيه:

«لا، لم يبقَ لديّ عمل هنا، لكن لو سمحت، أريد أوّلًا أن أصلّي».

كان مهدي واقفًا ينظر من البعيد، فتصرُّف التعبويّ القادم يبدو عجيبًا بالنسبة إليه. ذهب علي أكبر وشرع التعبويّ القادم بالصلاة. بعد عدّة دقائق رآه مهدي يأتي نحوه. تناول علي أكبر الرفش عن الأرض وسلّمه إيّاه. كان المكان الذي ينبغي على التعبويّ القادم إزالة التراب عنه مُحَدّدًا. كان حجّت جالسًا في ظلّ الدشمة التي جهُزت، ينظر إلى ما حوله بواسطة منظار التعبويّ القادم. توجّه علي أكبر نحو مهدي، وقال بصوت خفيف:

«ينبغي لهذا أن يُضاف إلى عجائب الدنيا السبع، فهو لا يعرف التعب على الإطلاق».

كان رأس التعبويّ القادم ووجهه يتصبّب عرقًا. لم يبقَ إلّا القليل لإنهاء العمل، حين ترك الرفش ونظر إلى ساعته. راح مهدي يراقبه. قال علي أكبر:

«أظنّه ملّ كما مللنا نحن».

اقترب التعبويّ القادم وقال: **«أستأذنكم، عليّ الذهاب، لو لم يكن أمرًا مهمًّا لما ذهبت. عسى أن تسامحوني».**

كانت آثار الامتعاض لا زالت تطبع وجه علي أكبر، حين تناهى إلى الأسماع صوت حجّت:

«قائد الكتيبة آتٍ».

نهض علي أكبر ومهدي. ركض حجّت ووضع المنظار في يد التعبويّ القادم:

«**والآن، أستودعكم الله، أجركم عند الإمام الحسين** عليه السلام».

لـم يسمع أحـد كلام التعبويّ القادم. بعد دقائـق عدّة، نظر مهدي إلـى أسفل التلّة. لقـد كان التعبويّ القادم منشغـلًا بالحديث مع قائد الكتيبة. جدّب حجّت بدنه، وقال:

«**لقد أنهيت عملي بفضل نور العين هذا**».

عندمـا وصـل قائد الكتيبة، هـرع الثلاثة نحوه. سلّـم قائد الكتيبة عليهـم، وقال: «**أحسـنتم، لقـد أثنى الحاجّ عليكم كثيـرًا. نظر مهدي إلـى علـي أكبـر بتعجّب. سـأل حجّـت الذي لـم يفهم شـيئًا من كلام القائد:**

«**أيّ حاجّ؟**».

ربّت قائد الكتيبة على كتفه وتبسّم:

«**أتمازحني؟ أقصد الحاجّ عبّاس، القائد الجديد للفرقة، لقد أتى صباح اليوم لتفقّد المنطقة**».

ضـرب علي أكبر بيده على جبينـه. جثا مهدي على ركبتيه، وراحت كتفاه تهتزّان من شدّة النحيب، فيما ركض حجّت خلف التعبويّ القادم، الذي كان يلوح كنقطة في المدى البعيد، علّه يدركه.

عروج في شرق دجلة

بعـد ساعة من عمليّات بدر شـنّ العدوّ هجومه. وها هي الآن طريق الإمداد مقطوعة، بسبب استهدافها بالقذائف المدفعيّة. قال قاسم:

«**والآن، مـاذا علينـا أن نفعـل يـا حـاجّ؟ لقـد قُصـفت بعض آليّات الإمـداد، وقطعـت الطريـق بإطـلاق النيـران، وعليـه، فالذخيـرة قـد نفدت من الشـباب، وموقع المنطقة لا يسـمح أيضًـا باسـتخدام المدفعيّة. لم يتبقَّ لدينا سوى السلاح الخفيف**».

أزاح عبّاس المنظار عن عينيه والتفت إلى قاسم قائلًا:

«**أنظر جيّدًا، لقد أعدّوا لكلّ واحد منّا دبّابة، لكن هذا ليس مهمًّا؛ لأنّنـا أيضًـا أعددنا خطّة لكلّ دبّاباتهم. فقـط، احرص وقوّاتك أن لا ينفذ العدوّ من هذه الجهة، وذلك إلى أن يحين وقت تنفيذ خطّتنا؛ أمّا بالنسـبة إلى إيصـال الإمدادات إلى الشـباب، فأنا نفسي أفكّر في خطّة. والآن، في أمان الله**».

نظر قاسم بتعجّب، وسأل: «**ما هي خطّتك يا حاجّ؟**».

تبسّـم عبّاس، وقـال: «**توكّلنـا علـى الله، لـن نسـمح بهـدر جهود الشباب**».

نـزل عبّاس من نقطة المراقبـة وانطلق. ساعد الهواء اللطيف على نثـر رائحة المستنقعات في الأجواء. كانت شمس شهر إسفند[1] تسطع على شرق دجلة.

(1) اسفنـد الشهر الأخير من السنـة الهجرية الشمسيّة الموافق تقريبًـا لشهر شباط- آذار من السنة الميلادية

حمـل عبّاس كيسًا مليئًا بقذائـف الـ (أر بي جي) على كتفه وجرى. كانـت القذائف المدفعيّة تنهمر على طريـق الإمدادات كالمطر. حين رأى الشـابّ التعبويّ قائـد الفرقة، صعد القناة وأخذ الكيس من ظهره قال:

«**العفو يا حاجّ عبّاس، لِمَ أنت؟**».

مسـح عبّاس عـرق جبينه، وقال: «**الوقت ليس مناسـبًا الآن لمثل هذا الكلام، علينا إيصال القذائف إلى الشباب**».

حرثت رشقات مـن الرصاص الأرض، بعد أن مرّت من جانبه. في هذه الأثناء، تناهت إلى مسمعه صيحات بعض الإخوة:

«**الله أكبر... الله أكبر...**»

التفت عبّاس باتجّاه الصوت. وقبل أن يتحرّك جذبته يد، وسحبته إلـى داخل القناة. كان السيّد مهدي قائـد إحدى الكتائب. رأى عبّاس آثار عدم النوم في عينيه المحمّرتين، وقال:

«**لا تؤخّر الشباب كثيرًا، علينا التقدّم**».

أطلّ السيّد مهدي برأسه من أعلى القناة، وقال:

«**حـاجّ عبّاس، أنت تمثّل الأمـل والمعنويّات للشـباب، لماذا رميت بنفسك تحت وابل الرصاص؟**».

نظر عبّاس إلى القناة المتعرّجة وتمتم: «**فليكن أملهم بالله تعالى، أَوَ دمي أشـدّ حمرةً من دمائهم؟**[1]. **كان المسـعفون يحملون النقّالة**

(1) كناية: هل دمي أعزّ من دمائهم

ويتقدّمون، عابرين صفوف القوّات؛ ليفتحوا الطريق. حين رأى حسين عبّاسا تقدّم نحوه مسلّمًا، وسائلًا عن الأحوال. سأله عبّاس مباشرةً:

«ما الخبر؟».

أحكم حسين قبّعته الخضراء اللون على رأسه، وقال:

«في الأسفل صحراء كربلاء، لكنّ الشباب لم يقصّروا بحمد الله. وقد أسروا عددًا من الأسرى أيضًا، لكن...».

«لكن ماذا؟».

قال عبّاس متمتمًا: **«لكن، دبّاباتهم لا تنتهي، كلّما أصبنا منها، عادت وظهرت من جديد مثل الفطر. السهل مليء بالدبّابات. قال أحد الأسرى إنّ صدّام زار المنطقة وهو نفسه يقود المعارك... «كم هم سذّج يا حاجّ!»**.

نظّم السيّد مهدي حمولته، وبوثبة واحدة اعتلى جدار القناة. وضع عبّاس جبينه على جدار القناة، وغرق في التفكير.

سأله حسين بهدوء: **«ما رأيك يا حاج؟»**.

«إنّ هدف الأعداء واضح وضوح الشمس. إن وصلوا إلى حصن الساتر الترابيّ الرئيسي، فلن يستطيع أحد منّا النجاة».

فكّر حسين بالقلق الذي يعتمل في قلب القائد، وسأل سؤالًا أخيرًا: **«ما هو الطريق القويم؟ وما العمل؟»**.

أجاب عبّاس: **« علينا أن نُفشل هجوم الأعداء مهما أمكن»**.

لم يعـرف النوم طريقًا إلى عيون أيّ منهم تلـك الليلة. ومع إرسال الشمس أوائل خيوط أشعّتها إلى السهل، وصل حسين متعبًا منهكًا. وقد بـدت عيناه كجمرتين مشتعلتين من السهـر، وقلّة النوم. كانت الأرض لا زالت تهتزّ من انفجار القذائف المدفعيّة، بالقرب منّا. توقّف عبّاس عن العمل، ونظر إلى الحفر. قال حسين:

«**ينبغي أن تتحوّل هذه الحفر إلى مقبرة للدبّابات**».

رفـع عبّاس رأسه إلـى السماء وقال: «**التوكّل على الله، ماذا لديك من أخبار سارّة؟**».

تجمّعـت الدموع في عيني حسين: «**لقد أخذ العدوّ منّا قسمًا آخر، وقد حاصـروا السـاتر الترابيّ الأساسيّ بالنيران أيضًا؛ وهم يرمون الشباب من اليابسة ومن الماء**».

استمـع عبّاس وانطلـق. وفي طريقه إلى السـاتـر الترابيّ، كانت قد خطـرت علـى ذهنه ألف فكـرة وخطّة. وهـا هو الآن وصـل إلى جانب السـاتـر الترابـيّ. كانت اليابسـة تحيط بالساتر من جهـة، والماء من الجهة الأخرى.

قال أحد التعبويّين: «**منذ الصباح الباكر، ويرمي القنّاصة الشباب من داخل هذا المجرى المائيّ، ويذهبون. لم يسـتطع أحد إلى الآن اقتفاء آثارهم**».

اختار عبّاس أربعة أشخاص. كانت حقول القصب متشابكة، بحيث لا يمكـن الاختفاء بينهـا إلّا بمشقّة بالغة. وكانت القذائـف العشوائيّة

تسقـط في المياه، وأحيانًا كانت تنفجر فـي أعماق المجرى الأخضر. حمل عبّاس الـ (أر بي جي) على كتفه. قال الشابّ التعبويّ:

«**إنّهم يرمون الشباب بكلّ دناءة**».

جهّـز رشّاشه. طـال انتظارهم. سأل عبّاس: «**أأنـت على يقين من أنّهم يرمون الإخوة من مجرى الماء؟**».

وقبـل أن يجيـب التعبـويّ تناهـى فجأةً إلـى مسامعهـم صوت ما، سرعان ما اختفى.

«**إنّهما زورقان، دخلا حقول القصب؛ أظنّ أنّهم نصبوا كمينًا**».

أنصت عبّاس، وضع المنظـار على عينيه، فرأى قنّاصين عراقيّين يرتديان ملابس الغوص:

«**ماذا نفعل يا حاجّ عبّاس؟**».

وضع عبّاس إصبعه على فمه أن «**صه**»، وضغط على مفتاح أمان الـ أر بـي جي. كادت الأنفاس تحتبس في صـدور التعبويّين الأربعة. ومع إطـلاق قذيفة الـ (أر بي جـي)، وسماع دويّ الانفجـار، وضع عبّاس المنظـار على عينيـه مجدّدًا، ونظر بين حقـول القصب. لم يرَ سوى بضعـة ألـواح محطّمة. وأوكل الـزورق الثاني إلى الرامـي؛ وقال وهو يبتعد:

«**سأرسل بعض عناصر الدعم، تذكّروا فقط أن لا ترفعوا نواظركم عن هذا المجرى**».

□□□

مـا إن رأى حسيـن وقاسم عبّاسًا، حتى هرعـوا نحوه. قال حسين: «**كنّا قلقين عليك يا حاجّ، أين كنت؟**».

أشار عبّاس إلى مجرى الماء ضاحكًا:

«**ذهبت أصطاد ذئب الماء من المجرى**».

أنصـت قاسم لحظة إلـى دويّ انفجـار القذائـف المدفعيّة، وقال بانزعاج:

«**إنّنا نُقرض قرضًا، هل تسمع صوت الدبّابات العراقيّة؟**».

نظر عبّاس وهـو غير مصدّق ما يرى، وقال: «**جهّز الشباب، قوّات الدعم أيضًا في طريقها إلينا**».

«**إلى أين أنت ذاهب؟**».

أشـار عبّاس إلى فوّهـة المجرى، وقـال: «**حان الآن وقت تنفيذ الخطّة التي أخبرتك عنها.**»

رفع حسين رأسه. توجّه عبّاس نحوه وقبّل جبينه: «**سنفتح جزءًا من التحصينات، هكذا أفضل**».

ارتسمت على وجه حسين ابتسامة مشوبة بالغصّة، وقال: «**سنقيم حفل طين من أفضل ما يكون لدبّاباتهم**».

قـال قاسم وهو يبتعد: «**إذا وُفّقنا سيُبعد صدام فكرة القيادة من رأسه**».

«**وداعًا**».

أرخى حسين هذه المرّة العنان لدموعه، قال وهو يختنق بعبرته: «**لا**

تقل وداعًا يا حاجّ، لم أسمعك إلى الآن تقول هذه الكلمة... لا تفعل يا حاجّ».

ابتسم عبّاس وانطلق. بعد ساعة، كان الخبر يُتناقل من واحد لآخر: «**لقد علق العراقيّون في الطين**».

لم يعد بإمكان حسين الانتظار. في هذه الساعة التي مرّت، كان قد رأى عبّاسًا في كلّ المواضع؛ لكنّ مكانه الأخير لم يكن معلومًا.

«**المرّة الأخيرة رأيته في نقطة المراقبة**».

عاود حسين المسير، في أثناء السير كان يفكّر في نفسه: «**لقد أراد أن يستطلع أوضاع العدوّ، أين يمكن أن يكون قد ذهب سوى إلى نقطة المراقبة؟**».

سلك طريق نقطة المراقبة. كانت رائحة البارود تملأ الأرجاء. حين لاحت له نقطة المراقبة سرّع خطواته. من هنا استطاع أن يرى عبّاسًا منحنيًا ينظر إلى دبّابات العدوّ. مع سماع صوت القذيفة يصفر فوق رأسه، انبطح أرضًا. وحين رفع رأسه لم يكن باستطاعته تصديق ما يرى. فالمكان الذي كان قد رأى فيه عبّاسًا قبل لحظات، كان مغطّىً بغبار غليظ. ضرب قبضتيه بالأرض ووثب من مكانه وجرى. حين رآه أحد المقاتلين ضرب بيده على رأسه، وارتفع صوته بين دويّ القذائف:

«**... أصابوه ... الحاجّ... أصابوا الحاجّ...**»

وصل حسين بين ذرّات التراب، المتناثرة تحت أشعّة الشمس الشتائيّة، فرأى عبّاسا. لم يعد بإمكانه إلاّ تصديق ما يرى. وضع رأس

عبّاس في حجره واستسلم للبكاء. فتح القائد عينيه مرّة أخيرة. وضع حسين رأسه على صدره، وصاح:

«**عزيزي عبّاس**».

مع حلول الغروب، كانت دبّابات العدوّ عالقة في الطين؛ وكانت قوّات الدعم تبحث عن القائد.

قصص ومرويّات حول الشهيد

١

الفاكهة المعلّبة

إحـدى المعجزات الإلهيّة التي أدّت إلى الانتصار في عمليّات الفتح المبين، كان الاستطلاع الأخير ما قبل العمليّات. ذهبت و«**حسين قجّة إي**» و«**محسن وزوايي**» في مهمّة، لاستطلاع أفضل طريق لسير الكتيبة إلى خطوط العدوّ الخلفيّة، واحتلال مرابض المدفعيّة خاصّتهم.

بعـد إنجاز مهمّة الاستطـلاع، جلسنا للاستراحـة. فتحنا الفاكهة المعلّبـة، وبينما كنّا نتكلّم بصوت هادئ، رحنا نـأكل الفاكهة المعلّبة، كنّـا نؤكّد بعضنا على بعض، بوجوب إرجـاع العلبة الفارغة معنا، حتّى لا نتـرك أثرًا لنا فـي المكان. عدنا إلى المقـرّ مسرورين، وبعد تقديم تقريـر عن العمل، تذكّرنـا فجأةً أنّنا نسينا العلبة فـي المكان. لم يعد بإمكاننا القيام بشيء، وإنّما توكّلنا على الله.

في أوائل الليلة التالية، وبعد عدّة ساعات من تحرّك الكتيبة، أبلغنا «**محسـن وزوايي**» بواسطـة جهاز اللاسلكيّ، بأنّـه أضاع الطريق. كنّا جميعًـا قلقيـن، حتّـى أنّ قائدنا الحـاج «**أحمـد متوسّـليان**» هوى إلى السجود، وراح يبكي متضرّعًا إلى الله تعالى.

ومـا هي إلّا لحظات حتّى جاءنـا الخبر بأنّ الكتيبة وجدت طريقها، والعمليـات بدأت بنداء يـا فاطمة الزهراء. فيما بعـد، علمت أنّ قائد الكتيبة قد عرف الطريق من خلال هذه العلبة المنسيّة.

الراوي: الشهيد نفسه

قائد الفرقة

لـم يتغيّر سلـوك الحاجّ عبّاس وتعاملـه، مع قبولـه مسؤوليّة قيادة اللـواء؛ فهو لـم يكن الشخص الذي يغترّ بمثل هـذه العناوين؛ لهذا لم يـرد أبدًا أن ينـادى بقائد الفرقة، فهـو يرى أنّ التعبويّيـن هم القادة الواقعيّين للحرب.

بعـد عمليّات خيبر، كثرت انشغالاته، فكان يعود متأخّرًا إلى البيت. لم يكن يتفوّه بشيء. وأنا لم أسأل أيضًا، إلى أن وُضع خطّ تلفون خاصّ في بيتنا، من قِبَل قيـادة الفرقة، وقيل: «**هذا التلفون خاصّ بالقيادة، وعبّاس قائد فرقة محمّد رسول الله** ﷺ 27».

وعلـى الرغم من أنّه كان قائد فرقـة، كان يأخذ راتبًا متدنّيًا. حين شهادتـه، كان راتبه يبلغ 2900 تومانًا. كان يعتبر الأموال التي بين يديه هـي أموال اللّه، وملـك لجميع النـاس، وكان يعتبر نفسـه مسؤولًا عن المحافظة عليها، ولم يكن يسمح بنقل شيء من بيت المال، ولو بمقدار رأس إبرة.

الراوي: زوجة الشهيد

عطر ورقّة الحضور

ذهبــت قبل بدء العمليّات لرؤية عبّاس. لم يكن أحد سواه في داخل الدشمــة. رأيت وجهه يشــعّ بالنورانيّة. فلم أكن أسمــح لنفسي أساسًا بممازحته. من طريقة كلامه، علمت أنّ قلبه في مكان آخر. قلت له:

«**أراك على غير حالك اليوم، سامحني. إنّي أرى شيئًا لا تراه أنت، إن استُشهدت فاشفع لي عند الله**».

وبعــد جهــد جهيد أخذت منه وعــدًا بالشفاعة، لكنّه لــم يكن يتفوّه بشيء. سأل:

«**أنت اليوم لا تعي ما تقوله! اذهب وعد في وقت آخر**».

ولكــن من شــدّة إصــراري، قــال: «**إن اســتطعت فعل شــيء، فعلى الرحب والسعة!**».

وقــد ذهب في يوم آخر مع أحد الرفاق إلى «**جنة الزهراء**». وهناك وقــف إلى جانــب قبر الشهيد «**أقارب برســت**»، حــدّق لدقائق في إطار صورته وقبره، وبقي مذهولًا في مكانه. حينها، لم أفهم معنى فعله، إلى أن جاء يومٌ دُفن فيه في ذلك المكان نفسه.

الراوي: أحد رفاقه المجاهدين

من جزيرة مجنون إلى بهشت زهراء

في عمليّات بدر، عاد الحاجّ عبّاس إلى دشمة المراقبة، بعد أن تفقّد الدشـم المحيطة. في لحظة واحدة، ومع سمـاع صوت مهيب، تمدّدت على الأرض. أمعنت النظر؛ لكي أرى أين سقطت القذيفة المدفعيّة.

« **يا إلهي! ماذا أرى؟! في هذه الدشمة كان الحاجّ عبّاس!**».

أخرجته من الدشمة. أصابت شظيّة رأسه فتلاشى معظمه، وضعناه داخل قـارب، وتوجّهنا بفائق السرعة إلى مركز الإسعاف. لكن لم يعد هنـاك من فائدة، فقد انتهى كلّ شيء... كان القارب يسير بهدوء نحو الطوارئ، فيما كان وجه عبّاس الوادع يسترخي تحت البطّانيّة. وضعنا جثمانه في سيّارة الإسعاف وانطلقنا نحو دوكوهه، وبنيّة الوداع الأخير طفنا بجثمانه في باحة تحيّة العلم، ومن ثمّ توجّهنا إلى طهران.

التحـق عبّاس كريمي بالحاج همّت في الذكـرى السنويّة لشهادته، وذلك في 1985/4/14، ليصبح هذا اليوم مرّة ثانية، مخلّدًا في أذهان عناصر فرقة محمّد رسول الله ﷺ 27.

بعـد يومين، دُفن جثمانه الطاهـر إلى جانب قبـر الشهيد «**أقارب برست**»، ومـرّة جديدة، حلّ مسافر من جزيرة مجنون ضيفًا على جنّة زهراء عليها السلام.

الراوي: أحد رفاقه المجاهدين

الإبداع سلاح المؤمن

فلنسأل أنفسنا: «**لنرى أين كنّا؟ ماذا كنّا؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نسير؟ إنّنا كقوّات لهذه الثورة علينا أن نبذل الدماء في سبيلها. إنّ مميّزات القائد هي كالتالي: سلامة الجسم وكثرة العلم، استشارة القوّات، سعة الصدر والتخلّي عن حسّ الانتقام، التعامل مع العناصر الذين تحت إمرته عن طريق الإرشاد والموعظة إلى جانب التكتيكات، والأهمّ من ذلك كلّه التقرّب من الله. على القائد الذي لا يتحلّى بالإبداع في العمل، التخلّي عن منصبه. الإبداع سلاح المؤمن القاطع**».

من خطاب للشهيد كريمي

كلمة أخيرة

...اصبـروا، فالصبـر ليس الاستسـلام للباطل والطغيـان، بل هو الثبات والصمود في مقابل البلاءات والشدائد.

الصبـر، هو الصمود في مقابـل المصائب، هو المواجهة الشرسة لمشـاكل الحياة، هو محاربة الأهـواء النفسيّة، وتنفيـذ أوامر الإمام، ومحاربة منافقي الداخل الذين هم أيضًا يشكّلون جبهةً داخليّة.

من وصيّة الشهيد

1014072

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org